مدخل إلى نظرية النقد الصوفي

فجوات النص وهندسة الخطاب

د. أحمد حاجي
جامعة قاصدي مرباح- ورقلة

تعدّدت تعاريف التّصوّف وتقاربت في مواطن كثيرة، وتشير معظمها إلى الزهد وترك الدنيا، بيد أنها لا تقتصر على ذلك فحسب، بل تجاوزته إلى جعل المحبة أساسا للمعرفة واليقين. وقد لاقى المتصوّفة كثيرا من النّقد فأجاز العلماء بعضا من أقاويلهم وسلوكاتهم وحرّموا كثيرا منها، ولعلّ هذا التّحريم ينطبق عليه ما ينطبق على الظاهر، فإذا وقفنا على خطاباتهم وجدنا فيها ما يدخل في باب الإجازة والقبول وما يدخل في باب الرفض والإنكار من جهة أخرى.

ومن تأمل شعر الصّوفية ووقف على مجموع أقاويلهم، وناول ما ذهبوا إليه صارفا النظر عن الأحكام السطحية والذاتية، ووقف على المسوّغات التي يصدر بها الخطاب على النحو الذي يؤسّس للغموض ما يدفع القارئ إلى متاهة القراءة كما يدفع بالناقد إلى عتمة التأويل، وزئبقية المعنى، يجدُ في ذلك فُرادة الحسّ وخصوصيّة الذّوق وحصرية التّأويل وعجائبية التركيب. ونهدف من هذا البحث إلى تأسيس نظرية جديدة مبنية على أسس علمية، تُمكّننا من قراءة تراثنا قراءة نقديـة وفق نظرية النقد الصوفي، والوقوف على بعض الأسس التي تنبني عليها.

اللغة الصوفية (لغة خارج اللغة وفوق اللغة):

يعتمد الشعر على لغة اللغة (لغة الرمز والإشارات)، فهي لغة خارج اللغة المتداولة وبعيدة عنها، وفوق اللغة الإفهامية الموجهة للعامة، أي أنها ـ عند الصوفية ـ لغة أخرى لا يستطيع أي باحث أو ناقد مهما يبلغ من أمر أن يفك رموزها ويفتح المعنى المغلق فيها، ويغلق المعاني المفتوحة على التأويل خلال عملية القراءة ما لم يقف على المسوّغات التي تبرر تلك الخطابات. فقد جاء في الرسالة القشيرية:"... للعقل دلالة، وللحكمة إشارة وللمعرفة شهادة... فالعقل يدل والحكمة تشير، والمعرفة تشهد، إن صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد"1 .

ويتبين من هذا القول وجود دائرتين هما:

الدائرة الأولى: صفاء العبادة بشرط صفاء التوحيد

الدائرة الثانية: دائرة العقل دلالة التمكين والتمييز، والحكمة إشارة التفكير، والمعرفة وشهادة اليقين والإحسان.

وارتأينا في هذه الدراسة تقديم بعض الظواهر التي ينبني عليها الخطاب الصوفي والوقوف على بعض النماذج التي تمثل التّفرّد والخصوصية، بما تتضمّنه من إشكالات التأويل. واللغة الصوفية لغة رمزية/مجازية، قابلة لكثير من صور التأويل، حيث يستخدم الشاعر الصوفي في لغته واستعارته دلالات متفردة ومختلفة عن أشكال الاستعارات الموجودة في الشعر العربي (... وتشكل الاستعارات في تركيبها وتكوينها سياقا خاصا فيه مفردات وجمل متميزة، فتصبح لكل مفردة دلالة ولكل جملة حجة) 2 .

التوغل في جمع المتناقضات :

تمثل التجربة الصوفية نموذجا للصراع الباطني/الظاهري من جهة، والباطني/ الباطني من جهة أخرى؛فالأسلوب الأول يقترن بتجربة الشاعر الباطنية، وتعامله مع الواقع والظواهر الظاهرة، أما الأسلوب الثاني فهو متعلق خصوصا بالباطن، صوت الحق الذي يقصده الشاعر للارتقاء الروحي، والصوت الآخر الذي يشدّه إلى مدارك النفس وما يتعلق بها من العجز وعيوبها عموما، وهذا الصراع بنوعيه يفترض خطابا جامعا لصور التناقض، ويتجلى هذا

الغموض في جمع المتناقضات الثنائية بين القرب والبعد، وبين الحضور والغيبة، وبين البقاء والفناء وبين الحياة والموت وغيرها. ومن أمثلة هذا التناقض قول أبي منصور الحلاج:

ذكرهُ ذكرِي وذكرِي ذكـرهُ هل يكونُ الذاكـرون إلاّ معاً ؟ 3

ويكون الذكر في مقام واحد، على أن الخلاف يكون بين حال الذكر للشّاعر وحال ذكر الخالق، فإذا ما ذكر الإنسانُ الله عز وجل في ملإ، ذكره الله عز وجل في ملإ خير منه.

وعجز البيت (هل يكون الذاكرون معا) والمراد به أنّ الذّاكر لا يذكر الله لسانا فحسب، بل أن يذكرهُ بحال المشاهدة اليقينية. وعلى هذا النحو يكون الخطاب في سياق عادي، فذكر الله هو الفعل الذي أقوم به، والفعل الذي أقوم به هو ذكر الله عز وجل.

والوجه الثالث مخالف تماما للتأويل الذي ذكرناه فيكون على هذا النحو: و نشير إلى أن عجز البيت يؤكد ما ذهبنا إليه فهو يقول:

(هل يكون الذاكرون إلا معا) وتأويل ذلك أن المخلوق يشير إلى وجود الخالق مع العلم أن وجود الله بدون بدء ولا انتهاء. و مصطلحات التصوف كثيرة، نذكر منها القرب والبعد :ففي ذلك يقول الحلاج:

فما لي بُعدٌ بعدَ بعدك بعدما تيقّنت أن القرب والبعد واحدُ4

فالقرب والبعد بمنزلة واحدة ويمكن لنا أن نقف عندها على هذه الصورة:

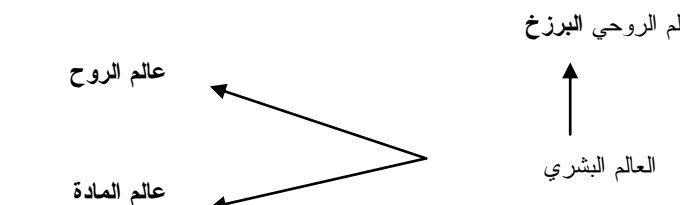

فالقرب من الله عز وجل هو بعد في حد ذاته: بعد عن كل ما يتعلق بالصفات البشرية وأهواء النفس وكل ماله صلة بالعالم المادي الجسدي، ومن النماذج العميقة في الخطاب التي ذكرها أبو منصور ي قصيدته (أنا وأنت) والتي منها:

أنا أنت بـلا شكٍّ فسبحانك سبحانـي
وتوحيدك توحيـدي وعصيانك عصياني
وإسخاطك إسخاطي وغفرانك غفرانـي
ولم أجلــد يا ربي إذا قيل هو الزانـي5

وهي أبيات تكتسي طابع الغرابة لما فيها من دلالات، حيث تطرح كثيرا من الأسئلة حول وحدة الوجود والحلول، على أننا سنحاول أن نتفادى الأحكام المسبقة ونعيد قراءتها من جديد، مع الإشارة على أن النص الصوفي قائم على نظام الفجوات، فضلا على نظام الاستبدال:

و يعني ذلك: أنا عبد، أنت رب بلا شك

أما عجز البيت فتستبيحك هو الفعل الذي أقوم به .

أما الوجه الثاني: فصدر البيت معناه ثابت على النحو الذي ذكرناه، أما العجز فقوله:

وبهذه الصورة فقد نظر الشاعر إلى أن الإنسان نفحة من روح الله عز وجل (فسبحاني) إشارة إلى روح الإنسان، وهي من روح الله عزّ وجل:

فسبحاني ← روح الإنسان من روح الله ←

فالعلاقة لا تكون على هذا النحو:

أ ← يشير ← ب تشير ج

أ ← ج

وقد يكون صدر البيت على وجه العبودية، فقوله(أنا) تشير إلى الوجود الإنساني، فهو المخلوق وذلك أن ضمير المتكلم يتجاوز دلالته الذاتية، إلى ما يحمله من دلالة إيحائية(العبودية)، فالضمير(أنا) قد يشير إلى لفظة (عبد)، وفي هذا يتجاوز الضمير(أنت) الدلالة الذاتية، فيشير إلى (الله)، وتكون صورة الخطاب (عبد الله)، كما قد يكون خطاب الشاعر قد يكون(عبدك)، ويحافظ الضمير(أنت) على دلالته الذاتية، وتكون صورة الخطاب(عبدكَ أنتَ) .

و العلاقة في التسبيح مجازية، فإذا كان التّسبيح لروحه كما يُفهمُ ظاهريا، هي ـ في التجربة الباطنية للصوفي ـ تسبيح لروح الله عزّ وجل، أي تسبيح الله، فالمعاني مجازية، تتلاحق الواحدة تلو الأخرى ويحيل بعض منها إلى أخرى لتكتمل صورتها المثالية لأن روح الإنسان من روح الله عز وجل، أما قوله:

وبهذا المعنى يكون التقابل بينا بين الأفعال التي ترتبط بالعام الروحي والأفعال التي صلة بالعالم المادي.

والأمر أيضا ينطبق على البيت الثالث:

أما البيت الرابع:

ولم أجلد يا ربي إذا قيل هو الزاني

فعل الزنا ← إقامة الحد

فعل الزنا ← عدم إقامة الحد

ومن النماذج الرائعة التي وقفنا عندها لأبي منصور الحلاج تائيته المعروفة (أقتلوني يا ثقاتي) يقول فيها:

أقتلوني يا ثقاتي إنّ في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي 6

ففي القتل حياة أخرى، وهذا القتل خارج عن الظاهر والمقصود:

موتي: موت الجانب المادي في الإنسان فذلك هو الحياة كما أن ممات الإنسان تكمن في حياته، وحياته في مماته.

ويقول أيضا:

وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات7

فبقاء الإنسان في صفاته البشرية من قبيح السيئات والمفترض أن يخرج من الصفات البشرية المتعلقة بصفات النفس وأهوائها وقوله أيضا:

ولدت أمي أباهـا إنّ ذا من عجباتي
فبناتي بعد أن كنـ نَّ بناتي أخواتي8

فالأب يكون على وجه الشرطية والسببية، فإذا ولدت الأم أباها، تحقق شرط الأبوة ظاهرا وباطنا، وقد يكون على وجه القول القائم من ذكر الآباء فهو الولادة، أو يكون على وجه الفعل من الدعاء للميت فهي ولادة أيضا.

أما البيت الثاني فالولادة تكون ظاهرة أو باطنة، في الأفعال أو الصفات التي يتصف بها الإنسان أو يحققها في حياته فهي (بناته) وتصبح ملازمة له فهي (أخواته).

وأورد برهان الدين البقاعي نماذج لشعر أبي منصور في مفهوم الاتحاد نذكر منها:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحـان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرتــه وإذا أبصرته أبصرتنا 9

ولا ندري كيف أفرد هذه الأبيات في الاتحاد، وعلى هذا النحو سار كثير من الدارسين، فقالوا بفكرة الحلول وغيرها من الأفكار، مع أن الخطاب الضمني مخالف تماما للخطاب في السياق الظاهر.

فالبيت الأول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
أنا الذي أهوى والله أهوى أنا

وعجز البيت:

نحن روحان حللنا بدنا

فالروح الأولى هي روح الله عز وجل، منبع الأسرار.

والروح الثانية هي روح الإنسان نفخة من روح الله عز وجل

والحلول ليس بالوجه المعروف بل على وجهين: فالوجه الأول حلول الروح (من روح الله عز وجل) وهي روح الإنسان، أما الثانية، فليس حلولها حلولا متحققا بذاته، بل بالصفات المرتبطة بها، وبهذا فالحلول الأول متحقق (من روح الله عز وجل)، أما الحلول الثاني فهو متخفٌ (بالأسرار والمعارف)، وبهذا فقد نظر أبو منصور إلى الحديث القدسي الذي جاء فيه.

عن أبي هريرة τ قال:قال رسول الله ρ :« إنّ الله تعالى قال:من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصِر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله، ترددّي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»10 .

أما البيت الثاني:

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا 11

فهذا البيت في ظاهره يدخل في مفهوم الاتحاد ولكن إذا وقفنا أمام فكرة التوحيد وجدنا أن أبا منصور لم يخرج عن باب التوحيد، وكي نميز بين مفهوم الاتحاد ومفهوم التوحيد نتتبع حطاب الشاعر فهو يشير إلى التوحيد : العبودية ثم الذات والصفات، فخطابه قائم على نظام الفجوات الذي يقتضيه السياق اللغوي والعروضي بشكل هندسي دقيق جدا.

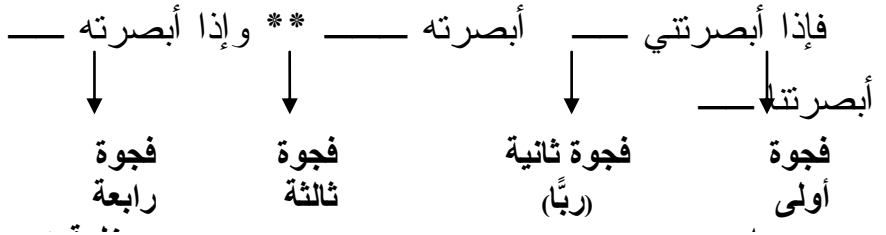

فإذا نظرت إلى المخلوق في عبوديته أبصرت ربا، وإذا أبصرت خالقا وجدت حكمة الله في خلقه، وتحقق صفات الخالق (البديع والمصوّر والخالق...)، فهذا البيت عين التوحيد ولم يخرج فيه الشاعر عن هذه الفكرة، ولعل الدارسين وقفوا على الخطاب الظاهري ما دفع العلماء والفقهاء إلى تكفيره، ومن هذه الأمثلة أيضا قوله:

(أنا الحق، وصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون)12

وهو أمر بديهي، فالكلمة سحر لا نقف عند معناها الذاتي، ولا نقف عند حدود العبارة، بل نتعداه إلى الدلالات الإيحائية للألفاظ، فقوله (أن الحق)، فالموت حق من جهة ومن جهة أخرى فالحق من الحقيقة، وهي حقيقة الوجود البشري، (وصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون)، فإذا كانت على النظام التناظري فهي على هذا النحو:

صاحب ← إبليس
فالنفس الأمارة بالسوء هي ملحق لإبليس

أستاذ ← فرعون

و(أستاذ/ فرعون) فالكل يعلم يقينا قصة فرعون في عدم الإيمان، والطغيان والفساد واستباحة الأعراض، ومن ثمَّ فقد تعلمنا من قصة فرعون عاقبة الظالمين والطغاة، فيكون لزاما علينا من هذه المعرفة وهذا العلم أن نبني حياتنا.

وإذا كانت عبارة أبي منصور (وصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون) على نظام آخر

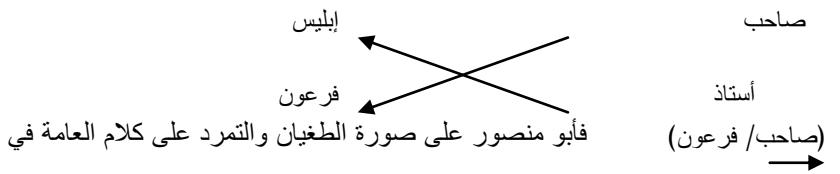

فأبو منصور على صورة الطغيان والتمرد على كلام العامة في تفكيره، فهو لا يؤمن بما ذهبوا إليه من التّكفير، متشبث بآرائه ومواقفه .

(أستاذ/ إبليس)

تكون صورة ذلك على وجه الكبرياء، فندرك يقينا بأن معرفة كبرياء إبليس هو الذي أخرجه من الجنة، ومعرفتنا عاقبة الكبرياء هي العلم بما ينبغي للمسلم أن يتفاداه فيسعى إلى التواضع والأخلاق التي نص عليها القرآن الكريم.

ويقول ابن عربي:

يا من يراني ولا أراه وكم ذا أراه ولا يراني 13

و يرى أبو العلا عفيفي أن ابن عربي أفنى ذاته في ذات الإله فلم يشاهد غيره 14، ولعل هذا التأويل يأتي بناءً على ظواهر النصوص، فالقراءة التأويلية تأتي لدمج وعينا بمجرى النص 15، وهذه النصوص وغيرها لا تمثل دلالة جاهزة بل هي فضاء دلالي رحب متاح لكثير من إمكانات التأويل، ما يدفع بنا إلى القول:إن المبدأ الأساس في إدراك المفاهيم التأويلية يكمن في إيجاد مسوغات الخطابات التي تنبني على فضاءات دلالية.

وإذا وقفنا على قول بن عربي نجد أنفسنا متفقين فيما ذهب إليه، ذلك أن الخطاب لا يكون على الصورة السابقة التي اقتضتها المناحي الباطنية أو التركيب اللغوي والإيقاعي، بل هو في الأصل قائم على نظام الفجوات، وهذه الفجوات عند الشاعر واضحة المعالم، فلا يورد الألفاظ التي تملأ هذه الفراغات، ف إذْ هي بمثابة التكرار، كما أنه لا يراعي المتلقي، فهو يفكر في المحبوب، وبناءً على فهذا البيت يكون على هذه الصورة :

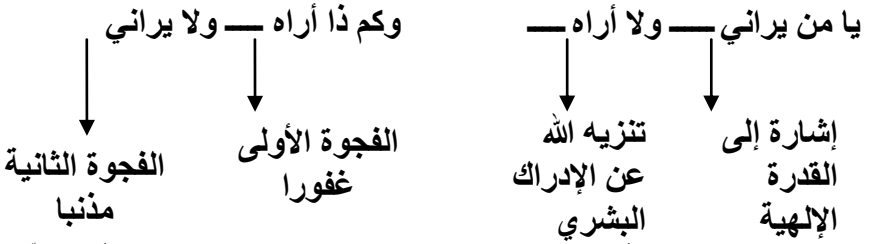

و القصد من ذاك أن الله عز وجل يرى مخلوقاته فلا يخفى عنه شيء، كما أنه ـ الشّاعر ـ يُنزّهُ الله عز وجل عن الإدراك البشري، أما العجز، فنحن نرى الله عز وجل غفورا رحيما ولا يرانا مذنبين عندما ننيب إليه، فالفجوات تمثل نظاما غريبا يحتاج إلى التأمل والتدقيق .

ويقول ابن عربي أيضا:

سبحان من يعلمُ لا يعلمُ كما أنـا أعلـمُ لا أعلمُ
فلا تقل من بعد ذا إنـه بما أنـا فيـه بـه أعلـمُ
لأنني لا علم لي بالذي يعلمهُ منـي فلا أعلـمُ
فإن يكن في العلم فضل بنا صح الذي قال هو الأعلم
لذاك أبدى حرف حتى إذا نعلم أمـرا لم نكن نعلـم 16

وهي أبيات يبدو فيها التناقض جليا، ذلك أن الألفاظ نفسها تتكرر إثباتا ونفيا، وبعضها على السياق المتعارف عليه وبعضها الآخر خارج عن هذا العرف، بل هو أوثق صلة بالإيحاء وعلى هذا الأساس سنحاول أن نفك شفرات هذا النص ونشير إلى بعض الجوانب الخفية فيه.

فقوله

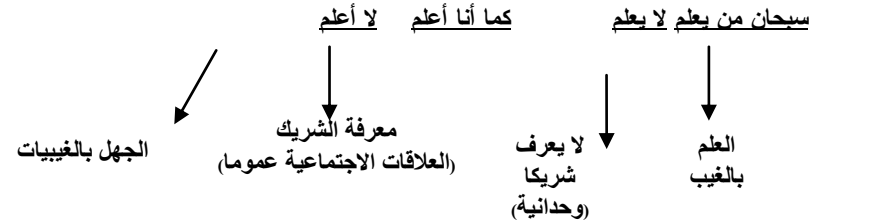

فهذا نظام قائم على محور الاستبدال، حيث تكتسي الألفاظ دلالات كثيرة، أم النظام الثاني فهو قائم على الفجوات، وهو على النحو التالي:

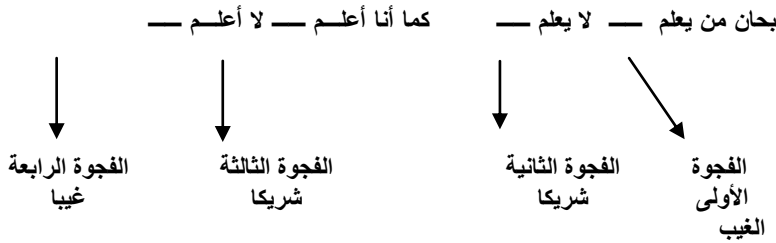

فنلاحظ أن النظامين اختلفا في الشكل الهندسي، بيد أن دلالته واحدة تتمثل في الإقرار بقدرة الخالق في العلم بالغيب وتنزهيه عز وجل عن الشريك والإقرار بوحدانيته، كما أن الإنسان يعلم شريكا، ويكون ذلك في العلاقات الاجتماعية، ولا يعلم الغيب.

ويشير في البيت الثاني إلى النهي عن إدعاء العلم ومعرفة الغيب، أما قوله:

لأنني لا علم لي بالذي يعلمه مني فلا أعلم 17

فالإنسان لا يعلم ما يعلمه الله عن أحوالنا وعاقبة أمورنا، وهذا البيت على قسمين وهو على النحو التالي:

(لأنني لا علم لي بالذي يعلمه) = (فلا أعلم)

مسوغات الخطاب الصوفي:

يتميز الخطاب الصوفي بتوظيف الرمز وهو نوعان:

رمز يكون عن اتفاق ومواضعة، ورمز مصدره الحالة الباطنية التي يكون فيها الشاعر الصوفي لا تكتسي طابعا وجدانيا فحسب، بل تتعداه إلى المعارف والأسرار الروحية، والشاعر الصوفي يبني خطابه على الرمز القائم على الباطن ما يجعل المتلقي في فضاءات قرائية كثيرة وتأويلات قد يحاكم بها شعراء الصوفية عامة:

ولا ندحة من الإشارة على أن الخطاب الصوفي له مبرراته، وتستوقفنا أبيات ابن عربي في هذا المقام:

ألا إن الرموز دليل صدق على المعنى المغيّب في الفؤاد
وإن العالمين لهم رمـوز وألغاز ليـدعى بالعبـاد
ولولا اللغز كان القول كفرا وأدّى العالمين إلى العنـاد
فهم بالرمز قد حسبوا فقالوا بإهراق الدماء وبالفسـاد
فكيف بنا لو أن الأمر يبدو بـلا ستر يكون له استنادي
لقام بنا الشقاء هنا يقينا وعند البعث في يوم التنادي
ولكن الغفور أقام سترا ليسعدنا على رغم الأعادي 18

فالرمز لا يستخدم عند الصوفية لذاته وإنما القصد الإشارة إلى معان أخرى مقصودة بذاتها، فهو- الرمز- (... ينتمي إلى حقول بحث متعددة جدًّا ومتشبعة جدًّا...) 19، وحالته إنسانية فريدة 20، خارج الإدراك المباشر للقارئ، وعلى هذا الأساس فإن(... للرمز معنًى ظاهري ومباشر وآخر باطني وغير مباشر)21. والرموز عند شعراء التصوف ليست حقيقة ظاهرة، بل هي حجة وبرهان قائم بذاته على المعاني الخفية، وهذا تصور أبن عربي وغيره من الشعراء، فهو يقول موضحا دلالة الرمز:

ألا إن الرموز دليل صدق على المعنى المغيب في الفؤاد
وإن العالمين لهم رمـوز وألغـاز ليدعى بالعبـــاد 22

فتجاوز الظاهر أمر معروف عند الصوفية، والمعاني التي قصدوها ما هي إلا صورة عن الباطن. وعدم توظيف الرمز هو الكفر بعينه، إذ يقول:

ولولا اللغز كان القول كفرا وأدى العالمين إلى العناد

فهم بالرمز قد حسبوا فقالـوا بإهراق الدماء بالفسـاد 23

ويرى ابن عربي أن الناس اكتفوا بالرمز وفهموا ظاهريا ولذلك قالوا بسفك الدماء القائم على الحكم الشرعي في مسألة التكفير.

دوافع الرمز الصوفي:

يتميز الخطاب الصوفي بطابع الرمز فقد لجأ الشعراء إلى التعبير على الأحوال الباطنية فتجلى الغموض في آثارهم، ويرى علي الخطيب أن هناك دوافع ألجأت هؤلاء المتصوفة إلى استخدام هذه الأساليب وجعلها سمة تميزهم عمن سواهم، فانطلقوا من سجاياهم وأرجع ذلك إلى عاطفة الحب المتأججة وشدة الغرام والرغبة في الوصل والمشاهدة وترك فهم الألفاظ 24 .

كما أنهم وقفوا على بعض الأسرار، والمعاني الربانية، والتكتم عليها، وكل هذه الدوافع شكلت الغموض فهي تنطلق من العالم الباطني، ولذلك فهي معان خفية لا يكون إدراكها إلا بالقراءة الباطنية، حيث يكون الوقوف على الحقائق وتجاوز الأحكام أو المعاني الظاهرة المباشرة (...ومعرفة الخصائص اللغوية والقيم التعبيرية للغة لا تنفصل عن معرفة الدوافع النفسية...لأنها كشفٌ عن نوازع الإنسان الذي ينطق بها، وكشف نوازع المخاطَب من قبل المخاطِب (بكسر الطاء) هو أولى درجات الفهم والاستيعاب، وعليها يعتمد فهم النص وصياغة الاستجابة...) 25، وإدراك الدوافع النفسية يمكننا من فك شفرات النصوص والوصول إلى إيجاد مسوغات الخطاب الصوفي، وتجاهل الدوافع يؤدي بنا حتما إلى التأويل الخاطئ وعتمة القراءة، ذلك أن اللغة في التجربة الصوفية تمثل عالما داخل العالم، مليئة ـ في الظاهر ـ بالغرابة والتناقض والغموض.

فجوات النص:

تمثل الفجوات في النص الصوفي عناصر غير محددة وهي ما تكشف عنصر المفاجأة، مفاجأة وعي المتلقي، فيعيد بناء المعاني من جديد، فالعناصر غير المحددة (المحذوفة) هي الواقع الأصلي للنص الذي يعبر عن واقع الشاعر الصوفي، أما النص على صورته الخطية ما هو إلا الظاهر، أما الباطن فهو النص الغائب الذي اقتضته السياقات اللغوية والإيقاعية، والتجربة الصوفية قائمة على نظام الفجوات، وعلى القارئ أن يملأ هذه الفراغات بالمعاني التي يقتضيها النص ليتشكل (النص الأم)، ومن جهة أخرى فإن اللفظة الواحدة إذا استخدمت أكثر من مرة في البيت الشعري الواحد فهي تكتسي دلالة ذاتية، ثم دلالة إيحائية ولا تكون على صورة واحدة. لعل هذه المحاولة القرائية تكون بابا مفتوحا لإعادة قراءة تراثنا وفق نظرية النقد الصوفي القائمة على نظام الفجوات وأساليب الاستبدال وكثير من الخصائص التي تحقق للنص أفقه، ذلك أن فجوات النصوص هي الواقع الذي ينضاف إلى الواقع الظاهري (في النص) ومن تم تكون ملامسة الواقع الصوفي.

الإحـــــالات

1 - الرسالة القشيرية، أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، (ت465 هـ)، دارالكتب العلمية بيروت، ط1، 1418هـ، 1998م، ص12.
2 - القارئ في الحكاية، أمبرتو إيكو، ترجمة أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، 1996، ص21.
3 - ديوان الحلاج، ومعه أخباره وكتاب الطواسين، وضع الحواشي وتعليق:محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 02، 1423هـ، 2002 م، ص 145
- ديوان الحلاج، ص128 4
5 - المصدر نفسه، ص163
6 - المصدر نفسه، ص125.
- المصدر نفسه، ص نفسها.7
8 - المصدر نفسه، ص .125
9 - مصرع التصوف، برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1980، ص.51
10 - الصحيح المسند من الأحاديث القدسية، مصطفى بن العدوى، مصر، د ط، 1989، ص 79 - 81 .
11 - مصرع التصوف، ص51.
12 - المصدر نفسه، ص51.
13 - فصوص الحكم، ابن عربي، تعليق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ج2 ص .16
14 - المصدر نفسه، ص .16
15 - المعنى الأدبي، ويليام راي، ترجمة د/يونيل يوسف عزيز، دار المأمون بغداد، 1987، ص .17
16 - ديوان ابن عربي، شرح وتقديم نواف الجراح، دار صادر، بيروت، ط01، 1999، ص .412
17 - المصدر نفسه، ص412.
18- الفتوحات المكية، ابن عربي، تحقيقد/عثمان يحي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، دت، ج188/4.
19- نظرية التأويل، بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003، ص94
29- لغة الترميز، عبد الهادي عبد الرحمن، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2008، ص51
21- الفتوحات المكية، ص188.
22 - المصدر نفسه، ص 188
23 - المصدر نفسه، ج 04، ص 188
24 - اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، مصر، (د ط)، 1404هـ، ص 155
25 - استقبال النص عند العرب، د/ محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط4، 1999، ص63.

مدخل إلى النّقد الصوفي

نقد اللاّنص و قراءة في المساحة الصامتة للخطاب

د/ أحمد حاجي

مثّل الشّعر الصّوفي نموذجا خصبا للنّقد والقراءة ،واختلف النّقّاد والدارسون في تأويله حسب مصادرهم ومشاربهم المعرفية، ولم تكن هناك نظرية قائمة يتمكّن الدّارس من تطبيقاتها لملامسة و استكناه النص (الأم)،ونسعى في هذه المداخلة إلى بسط أصول هذه النظرية والتي وسمناها بـ :نظرية النّقد الصّوفي،إذ كثيرا ما وقف القارئ أمام نقد النّص،بينما ترتكز القراءة على نقد النص و اللاّنص،فالنص هو الصّورة الخطّيّة،أما اللاّنص فهو ما وراء الخطاب .

أصول النقد الصوفي:

تتمثل أصول نظريّة الصّوفي في الأسس التي تُعتمد لتحليل النص،وتُستقى هذه الأسس من مختلف المعارف والعلوم،من اللغة والأدب والفلسفة والعلم النفس وعلم الاجتماع وشتى العلوم الأخرى،والأسس التي نشير إليها تتمثل في نظام فجوات النص و نظام الاستبدال والمحور والتضاد، فهي مجموعة من الأسس التي قام عليها النص الصوفي، ما شكّل عائقا أمام القارئ .

والأسئلة التي تواجه الناقد كثيرة و أهمها:هل وقف النقد على حقيقة الشعر الصوفي و وصل إلى ملامسة الواقع النصي،أم أنه عاجز عن هذه الملامسة،وهل ما قدمه النقاد في دراسة الشعر

الصوفي هو قراءة مع الإشارة إلى تعدّد هذه القراءات،أم أنه نقد له أصوله التي يتعارف عليها النقاد؟

إن الموروث النقدي في عمومه لم يصل إلى ملامسة الواقع النصي وعجز تماما عن قراءة الشعر الصوفي، بل وقف الناقد عند حدود القراءة والتأويل ،واكتفى بعض النقاد بالأحكام الذوقية التي لا تمثل ذوق الشاعر الصوفي،فاتّسم بالسطحية التي انبنت على ظاهر الخطاب، بيد أن التجربة الصوفية تجربة باطنية فريدة لا تعتد بالآخر (المتلقي) ولا تراعي مدى استيعابه وفهمه ،ولا أدلَّ على ذلك إلا قضية صلب ابي منصور الحلاج، إذ وقف العلماء والفقهاء عند ظاهر الخطاب ما جعل الصلب صورة للقصور النقدي ،فضلا على أن هذا كان لدواع سياسية معروفة.

أسس النقد الصوفي وإمكانية القراءة:

تنبني أسس النقد الصوفي على عدة أنظمة نذكر منها: فجوات النص والاستبدال والتضاد والمحور ،وكل ذلك يمثل المساحة الصامتة في الخطاب أو اللانص.

فجوات النص:

تتمثل فجوات النص في الثغرات التي تكون في الخطاب ،وهي الكلمات المحذوفة، فيكون دور القارئ هو دور الشاعر نفسه في ملء هذه الفجوات لتحقيق تكامل معرفي يرقى إلى مستوى التجربة الصوفية، وقد لجأنا إلى انتقاء بعض النماذج الشعرية الصوفية ذات البنى العميقة، فمن أمثلة الفجوات التي تمثل المساحة الصامتة في الخطاب قول أبي منصور الحلاج:

أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحاني

وتوحيدك توحيدي وعصيانك عصياني[1]

ويبدو أن القدماء وقفوا على الظاهر، فقالوا بفكرتي الحلول والاتحاد، ونحن نقف على خطاب ابي منصور نجد بعض النقص، فالمعنى غامض ما يدفعنا إلى إعادة قراءة ما لم يقله أبو منصور،وهذه الفراغات هي المساحة الصامتة، التي يجب إعادة النظر فيها لبناء تكامل قرائي بين نوعين من النص: النّصّ الخطّي والنّصّ اللاّخطي، فالنص على صورته الخطية واضح المعالم يخضع لقواعد اللغة العربية في حين أن النص اللاّخطي صامت نستنطقه بآليات النقد.

وتجربة الشعر عند أبي منصور تجربة واضحة، ما تدعوه إلى تفادي التكرار، فالمعاني يدركها هو في ذاته، وليس بحاجة إلى تكرارها في النص، لأنه لا يعتد بالقارئ أو المتلقي ، ولذلك فهذان البيتان يخرجان عن جاهزية المعنى و الإدراكات الظاهرة ،فقوله:

أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحاني

يحتوى على نظام فجوات بشكل غريب، وهذا الشكل على عدة أوجه، فالوجه: الأول إشارة إلى الخلق والحق.

وهو أنا ضمير المتكلم يتضمن الوجود البشري و يعني الخلق .

أنت ضمير المخاطب يتضمن وجود الله (بدون بدء ولا انتهاء)

فصورة البيت على هذا النحو: خلق الله بلا شك.

أما الوجه الثاني وهو نظام الفجوات: قائم على فجوة واحدة

أنا ___ أنت بلا شك

الشاعر عبد الله

[1] ابن الحلاج، تعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2002،2،ص 145.

فتكتمل الصورة: أنا عبد الله بلا شكّ

أو قد يكون صد البيت متضمنا فجوتين فيكون على هذا النحو:

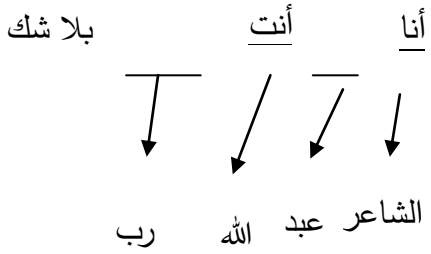

فتكون صورة البيت على هذا النحو: أنا عبد، الله رب بلا شك.

أو قد يكون على وجه مخالف تماما:

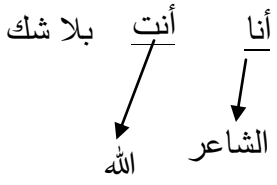

وبهذا فيكون الشاعر قد نظر إلى الحديث القدسي: (... ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ،ور جله التي يمشي بها،ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه)[2]

[2] - الصحيح المسند من الأحاديث القدسية،مصطفى بن العدوي،دار الصحابة للتراث ،مصر (د ت) ،1989،ص79-81

فالصفات الإلهية من السمع والبصر والقدرة تحلّ في الإنسان ،وعلى هذا الأساس فإنّ ضمير المتكلم (أنا) يتجاوز دلالته الذاتية إلى الدلالة الايجابية متضمنا الصفات الإلهية التي تحلّ فيه .

وقد يكون على صفة التطابق (أنا أنت) فيكون الشاعر قد نظر إلى فكرة الفناء فيكون المحب هو المحبوب .

و يتّضح مما تقدم أن الشاعر لم يقل بفكرة الحلول بل قال بفكرة التوحيد .

أما قوله (فسبحانك سبحانك) يتحقق تسبيح الله عز وجل وهو المحبوب ،تسبيح المحب (الشاعر) ،ومن وجهة نظر أخرى يقف الشاعر على التسبيح :تسبيح الله عز وجل وتسبيح روحه التي هي من روح الله

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا [3]

فالمحب والمحبوب واحد وهي إشارة إلى الغناء في المحبة ما عجز البيت الأول فالحلول على الوجهتين

الوجه الأول للحلول حلول الروح في الشاعر وهي من روح الله عز وجل أما الحلول الثاني فهو على نظام استبدالي فلا تحل روح الله عز وجل في الشاعر،بل ما يتعلق بها من الصفات السمع البصر والقدرة) وهي إذا ارتبطت بالبشرية فهي غير مطلقة

وقوله

[3] - مصرع التصوف،برهان الدين البقاعي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،1980،ص51

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

فإذا نظرت إلى المحب نظرت إلى المحبوب، وإذا نظرت إلى الخلق نظرت إلى الخالق في بدائع صنعه، وهي وحدة وجود (وإذا أبصرته أبصرتنا) فالناظر إلى الواجد ناظر إلى الموجود كونه أصل الوجود وهي وحدة شهود .

أما نظام الفجوات في هذا البيت فهي المساحة الضامنة التي تحقق بعد الأفعال الأربعة فصورة البيت على هذا النحو:

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته خالقا أبصرتنا مخلوقين

وقال ابن عربي

يا من يراني ولا أراه وكم ذا أراه ولا يراني[4]

ويشير في صدر البيت إلى الرؤية البصرية في عجز البيت فلا يدل على ذات بل على الفعل (أجد) مع تحقق الفعل (أرى)

فجوات في عجز البيت بعد الفعلين فتكتمل صورة العجز على النحو

وكم ذا أجده غفورا ولا يجدني مذنبا مع تحقق الشرط بطبيعة الحال: وهي التوبة والإنابة إلى الله .

وقال أبو منصور الحلاج أيضا :

كفرت بدين الله والكفر واجب على وعند المسلمين قبيح[5]

---

[4] - فصوص الحكم ،ابن عربي تعليق ،عبد العلا عفيفي،دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان ،الجزء2،ص16

[5] - ديوان الحلاج ومعه أخباره وكتاب الطواسين ، ص 128 .

فالفعل(كفر) بمعناه اللغوي (غطى)، أما اصطلاحا فدلالته عدم الإيمان ،وقد استخدمه الشاعر على وجهين : فالوجه الأول لغوي،وهو صدر البيت أما في العجز فهو ضمني،بدلالته الاصطلاحية ،فأبو منصور يشير إلى أنه تغطى بدين الله ،وعند المسلمين فالكفر قبيح وهو معنى اصطلاحي ،والقبيح في ذلك أنّ الناس يفهمون فهما ظاهريا ويقفون على المعاني السطحية .

ومن النماذج التي يتحقق فيها نظام المحور قول أبي منصور :

وغبت في الوجد حتى أفنيتني بك عنّي[6]

و يتعلق بنظام المحور حروف الجر وهذه الخاصية كثير الورود في الشّعر الصوفي،

فقوله (أفنيتني بك عنّي) يشير إلى ثبوت محور وبمعنى آخر ثبوت العلاقة بين الشاعر والله والفناء فيه وهو المحبوب،ونفي المحور وهو النفس فهو الرقي إلى العالم الروحي ومحو محور النفس و متعلّقاتها

أما نظام التضاد، فإنّ الشاعر الصوفي يلجأ إلى حشد أشكال التّضاد بشكل غريب ،وتوغّل في جمع المتناقضات ،ونجد هذه الخاصية متعلّقة أيضا بنظام المحور ،ومن أمثلة ذلك قول أبي منصور في القصيدة نفسها :

يا نعمتي في حياتي وراحتي بعد دفني[7]

فالتضاد بين (حياتي ودفني) ،والمحور متحقّق في المقصود بعينه وهو (الأنا) ،فحياتي متعلقة بالله عز وجل والراحة متعلّقة به أيضا ،والحياة على هذه الصورة هي الحياة الروحية، والدّفن هو

---

[6] - ديوان الحلاج ،ص165

[7] - ديوان الحلاج ص165

فناء الذّات (النفس و متعلقاتها) وإذا تحقّق ذلك تحقّق الفناء في الله (المحبوب) .

وتتمثّل تجلّيات التضاد في الصورة التي تكون عليها الألفاظ ودلالاتها، فتتناقص بناء على محور يكون إليه الاستناد لإقامة وجه المقارنة، فضلا على أن الفناء هو متحقّق عن (عن) و في (في):فناء عن الذّات ،وفناء في المحبوب (الله عز وجل) .

واللغة الصوفية هي لغة شعرية (...نتيجة التلازم الحاصل بين الشعر واللغة لدرجة لا يمكن معها تصور ماهية الشعر غلا من خلال ماهية (اللغة)[8] ،ولا يمكن قراءة الشعر الصوفي بالوقوف على تجربة الشعر الغنائي فحسب ،بل يجب النظر إلى أن هذا النوع من الشعر نُظم بطريقة خاصة من طرائق استعمال اللغة والوقوف على مسوّغات الخطاب الصوفي التي أدت إلى صدوره على النحو الذي يجعل هوّة بين الشاعر والمتلقي .

فاللاّنص هو الصورة الغائبة التي يجب الوقوف عليها بهذه الآليات لتكتمل صورة النص الخطية ،فتكون القراءة والتأويل قائمين على أسس نقدية تقتضي إلى ملامسته الواقع الصوفي.

[8] - اللغة الشعرية،دراسة في شعر حميد سعيد ،محمد كنوني،دار الشؤون القافية ،بغداد ،ط1997،1،ص 14 .

مدونة
Riyadh
Hamza

دار الرشيد للنشر

الشعر الصوفي

حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي

عدنان حسين العوادي

الفصل السادس

موضوعات الشعر الصوفي

١) تمهيد

كما ولد التصوف في احضان حركة الزهد الاسلامي العامة ، كذلك ولد الشعر الصوفي في رحم التيار العام للشعر الديني في الاسلام • وكما كان شاعر الزهد لسانا لحركة الزهد العامة ، كان الشاعر الصوفي لسان التصوف بلغة الشعر • ولعلنا التمسنا في الفصل السابق بعض ما يشير الى ذلك ، ففيما يتصل بالشريعة رأينا الدعوة الى التمسك بالفرائض الدينية التي اوجبها الاسلام والمبالغة في ادائها امرا شائعا في الشعر الديني ، فالشعراء يحضون ـ كما يحضّ القرآن ـ على الاكثار من الصلوات والادعية والذكر وسائر العبادات والنوافل كالصوم الطويل والذهاب الى الحج سيرا على الاقدام وغيرها • وكان يستتبع ذلك في الجانب الاخلاقي سهر الليل وقيامه ونبذ طيبات الحياة ومتعها . والتحلي بصفات الفقر وايثار الغير ، وتعذيب النفس وحرمانها ، والرغبة في اعتزال الناس بالخلوة او السياحة ••• كل هذا خلاصا من عذاب الجحيم وهول القيامة والحساب ، وفوزا برضا الله وجنته • وضمن هذا الاطار ظلت تسير حركة الزهد في الاسلام ، مع تحولات ومخاضات كانت تعمل فيها بالقدر الذى تقتضيه طبيعة التطور الحضارى للمجتمع الاسلامي •

على ان هذه السمات لم تكن هي ذاتها التي طبع بها التصوف الاسلامي، فعلى الرغم من ان الصوفية التزموا التزاما شديدا ، وحتى زمن متأخر ، بالجانبين التعبدى والاخلاقي ، وبالغوا كثيرا فيهما ، الا

ان التزامهم هذا قد افضى الى نتائج جديدة غير التي كانت عليها حركة الزهد التقليديه ، وهذا هو ما تتميز به حركة التصوف الاسلامي حقا • فالفرائض التي اوجبتها الشريعة لم تكن في نظر الصوفية مجرد شعائر شكلية، بل هي في الحقيقة وسائل لتطهير النفس من علائقها بالدنيا تمهيدا لمعرفة الله « الحق » ، وهو ما عبر عنه معروف الكرخي حين عرف التصوف بانه « الأخذ بالحقائق واليأس مما في ايدى الخلائق »[1] وفي هذ النظرة بالذات يكمن سرّ الخلاف بين الفقهاء والصوفية (الشريعة والحقيقة) ، كما ان هذه النظرة نفسها هي التي هونت على الصوفية حياة التقشف والعزلة والحرمان التي كانوا يحيونها ، وحببت اليهم تلك المصاعب والمشاق التي كانوا يكابدونها برضا وهم في طريقهم الى الله ، حتى بلغوا في هذا الشأن ، حدا يعزّ على التصديق •

وكلما زاد استلهام الصوفية للمؤثرات الاجنبية المتعاظمة النفوذ في الوسط الاسلامي ، وسّع ذلك من افاق المعرفة الصوفية المجردة وغير المحدودة ، الامر الذي شجع بعض الصوفية فيما بعد على النظر الى مظاهر الشرع بتهاون واستخفاف • ومع ان الحلاج يعتبر من اوائل الذين عبروا عن هذا الاتجاه جهرا ، الا انه قوي واشتد بعده ، خاصة في بلاد فارس على يد ابي سعيد الخير شاعر الرباعيات الفارسية المعروف • ولما كان مثل هذا الاتجاه، يعطي ـ بحكم لا محدوديته ـ فرصة ملائمة لظهور قابليات الافراد وبروز نزعاتهم الذاتية ، فقد استقل معظم الشيوخ بطائفة من اتباعهم ومريديهم على هيئة جماعات من التابعين تترسم برسوم معينة ، ومن ثم غدا التصوف فرقا متعددة ليس من اليسير معرفة اتجاه كل منها ولا تمييز بعضها عن البعض الاخر ، الامر الذي مهد لظهور الغزالي ، المتدين اللاهوتي، الذي سعى لمزج الدين بالتصوف ، وكرس لذلك كتابه المعروف « احياء علوم الدين » •

---

(١) الرسالة ـ ص ٥٥٢ .

٢» شعر الزهد الصوفي :ـ

لقد عبّر الشعر الصوفي بأمانة عن مختلف النوازع الصوفية ، فقد بدأ اول الامر ممتزجا بشعر الزهد ، شأنه في ذلك شأن التصوف نفسه ، والاشعار التي رويت عن متصوفة الزهاد هي في عمومها ذات غرض اخلاقي تعبدي اكثر منها ذات نزوع روحي باطني • وفي طليعة الموضوعات التي عرض لها الشعر الصوفي في بدايته هو الاعراض عن الدنيا والزهد فيها ، باعتبار ان ذلك هو الخطوة الاولى في طريق التصوف • ويمكننا ان نعد الابيات التي نُصح فيها محمد بن المبارك على لسان امرأة صوفية خير مثل على ذلك :

دنيـاكَ غـرّارة" فدعهـا فانهـا مركـب جمـوح
دون بلـوغ الجهول منهـا مُنيتَـه ، نفسـه تطيـح
لا تركب الشـرَّ واجتنبـه فانـه فاحش قبيـح
والخير فاقـدم عليـه ترشد فانـه واسـع فسيح[٢]

وفي الاعراض عن الدنيا ايضا يقول عبدالله بن خبيق :

اف لدنيـا ابت تواتينـي الا بنقضي لها عرى دينـي
عينـي لحينـي تديـر مقلتهـا تطلب ما سـرها لتردينـي[٣]

وكما رأينا عند شعراء الزهد ، فان هذا الاعراض عن الدنيا ومغرياتها مبعثه الرضا بمشيئة الله والقناعة بفضله • وهذا بشر بن الحارث (ت ٢٧٧ هـ) يفضل ان يحيا حياة الفقر والقناعة على حياة الترف والغنى فيقول :ـ

قَطْعُ الليالـي مـع الايـام في خَلَـق
والنـوم تحت رواق الهـمِّ والقلَـقِ
احرى وأَعـذَرُ بـي من ان يقـالَ غـدا
انـي التمسـت الغنـى من كف مُختلِق

---

(٢) حلية الاولياء ـ ٩/٢٩٩ .
(٣) ن • م ـ ١٠ / ١٦٩ .

قالوا : رضيتَ بذا قلتُ : القنـوع غنـى
ليس الغنى كثرة الامـوال والـورِق
رضيت بالله في عُسري وفي يُسري
فلسـت اسـلك الا واضحَ الطـرق[٤]

اما الغنى الحقيقي فلا يتأتى الا بالتعفف واليأس مما عند الناس والصبر على ما يبتلى به العبد من نوازل ، يقول ذو النون :

لبسـت بالعفـة ثـوب الغـنى فصرت امشي شـامخَ الراس
انطق لي الصبر لسـاني فمـا اخضـع بالقـول لجلاسـي
اذا رأيت التيه مـن ذي الغنـى تهت عـلى التائـه باليـاس[٥]

على ان هذا الغنى الحقيقي لا يستوطن الا قلب امريء متوكل على الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه وهو الذي يسدده لما يريد :

يجـول الغنـى والعـزُّ في كـل موطـن
ليستوطنا قـلبَ امـرىء ان توكـلا
ومـن يتوكـلْ كـان مـولاه حسبَه
وكـان لـه فيمـا يحـاول معقِـلا[٦]

ومن الواضح ان نزعة الاعراض عن الدنيا والزهد بما فيها ، والاخلاد الى حياة القناعة والفقر والرضا بفضل الله والصبر على نوازله وشكران نعمه والتوكل عليه في السراء والضراء ، قد افضت بالضرورة ـ كما رأينا ذلـك عند الزهاد ـ الى ان يحيا الصوفية حياة تقشف واعتكاف ونزوع الى الخلوة والسياحة للانفراد والتأمل ، لم تكن تتنافى ـ على ما يبدو ـ مع وجود حلقات منظمة تقريبا لدراسة التصوف النظري وتعلمه[٧] .

---

(٤) طبقات الصوفية ـ ص ٤٤ .
(٥،٦) الحلية ـ ٩ / ٣٧٢ .
(٧) التعرف ـ ص ٣٠ ـ ٣٢ .

وكما رأينا عند الزهاد ، فان حياة الحرمان والتقشف عند الصوفية كان مبعثها الرهبة من عذاب الله وحسابه ورجاء الفوز بجنته ونعيمه ، ويعتبر كتاب « التوهم » للمحاسبي خير ما يوضح ذلك ، فهم يرون « ان العبد بين الخوف والرجاء »[٨] ، ويقول الواسطي : « الخوف والرجاء زمامان على النفوس لئلا تخرج الى رعوناتها[٩] ، وبناء على ذلك فقد كثر ذم الدنيا وسرعة زوالها والدعوة الى الاعراض عنها ، والنظر اليها على انها طريق الى الموت وفرصة للتزود بالعمل الصالح ، يقول محمد بن منصور :

انما الدنيا ـ وان سرّتْ ـ قليل من قليلِ
ليس تعدو ان تبدّى لك في زيّ جميل
ثم ترميك من المأ من بالخطب الجليل
انما العيش جوار الله في ظل ظليل[١٠]

ويدعو خيثم العجلي الى التزود للموت ذلك الرحيل الذى لابد منه فيقول :ـ

يا خاطب الدنيا على نفسها ان لها في كل يوم حليل
ما اقتل الدنيا لخطّابها ! تقتلهم قدما قتيلا قتيل
تستنكح البعل وقد وطّأت في موضع اخر منه بديل
اني لمغتر وان البلا يعمل في جسمي قليلا قليل
تزودوا للموت زادا فقد نادى مناديه : الرحيل الرحيل[١١]

---

(٨) ن . م ـ ص ٧٤ .
(٩) الرسالة ـ ص ٦٦ .
(١٠) الحلية ـ ١٠ / ٢١٧ .
(١١) الحلية ـ ١٠ / ١٣٩ .

ويربط يحيى بن معاذ الرازي بين قطع العلائق بالدنيا والظفر بالنعيم الخالد فيقول :

سلّم على الخلق وارحلْ نحوَ مولاكا
واهجر على الصدق والاخلاص دنياكا
عساك في الحشر تُعطى ما تؤمّلُه
ويكرم الله ذو الآلاء مَثواكا[١٢]

ويقول الشبلي :

قد نادت الدنيا على اهلها — لو ان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر واريته — وجامع فارقت ما يجمع ؟[١٣]

وله ايضا :

ليت شعري كيف ذكري — عند من يعلم سري ؟
ليت شعري كيف حالي — عند احضاري وحشري ؟
اجميل أم قبيح — أبخير أم بشر ؟
اترى يقبل قولي — ام ترى يشرح صدري ؟
ليت شعري اين امضي — لنعيم أم لجمر[١٤] ؟

على ان الصوفية ما لبثوا ان تحرروا من هذه النظرة التقليدية للخوف والرجاء ، وهي وان ظلت ترد في اشعارهم ، الا انهم منحوها معنى باطنيا جديدا، فغدا « الخوف سراج القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر »[١٥] ، وغدا الرجاء هو « النظر الى سعة رحمة الله »[١٦] . ولم يقفوا منهما عند هذا الحد

---

(١٢) ن . م — ١٠ / ٦٣ .
(١٣) الديوان — ص ١١٠ ولعلها : فرقت ، بدلا من : فارقت .
(١٤) الديوان — ص ١٠٣ .
(١٥) الرسالة — ص ٦٥ .
(١٦) ن — م — ص ٦٨ .

بـل اوغلوا في استبطانهما استبطانا روحيا فصار الخوف « هيبـة » (والهيبة من شرط المعرفة)[١٧] ، وقالوا في الرجاء انه « قـرب القلب مـن ملاطفـة الـرب »[١٨] ، وهكذا جعلوا الخوف يفضي الى المعرفة ، يقول احمد بـن عاصم الانطاكي : « من كان بالله اعرف كان له اخوف »[١٩] • وجعلوا الرجاء يفضي الى « الحب » فهو « رؤية الجلال بعين الجمال »[٢٠] ، والحب طـريق المعرفة • وهكذا جعلوا « الخوف والرجاء » اساسا لمعرفة الله معرفة حقيقية يبلوغ حال « الفناء » والتحقق « بالبقاء » بالله ، وذلك هو غايـة الصوفي ومنتهى طلبه • ومن هنا تماما يتعين المنعطف الذى يميز الشعر الصوفي عـن شعر الزهد الاسلامي •

٣» شعر الطريق الى الله :

يجتاز الصوفي في طريقه الى الله مرحلة اولية غايتها اماتة شهوات النفس وقطع علائقها بالدنيا وتطهيرها من كل ميل الى غير الله • ويطلق الصوفية على هذا اللون من الترويض النفسي اسم « المجاهدة » • وقد قسـمتها كتب الصوفية الى عدة درجات تفضي كل درجة الى درجة اخـرى هي ارفع مـن سابقتها شأنا ، وقد اطلقوا على هذه الدرجات اسم « المقامات » • ولأن هذه « المقامات » متداخلة يستدعي بعضها بعضا تبعا لحاجة نفس الصوفي ، فنحن لا نظفر باجماع على تحديدها او تسلسلها في كتب التصوف • ويبدو ان هذا راجع الى اختلافها لدى الصوفية انفسهم تبعا للاستعداد النفسي الذى يتمتع به هذا الصوفي او ذاك ، بحيث صارت طرق السالكين الى الله بعدد انفـاس سـالكيها[٢١] •

---

(١٧) ن ــ م ــ ص ٦٥ .
(١٨) ن ــ م ــ ص ٦٨ .
(١٩) ن ــ م ــ ص ١٥٥ .
(٢٠) ن • م ــ ص ٦٨ .
(٢١) عوارف المعارف ــ ص ٤٧٠ ــ ٤٧١ .

ومع ان « المقامات » هي المرحلة الاولى التي يبتديء بها المريد ، الا ان الصوفية قد امعنوا في النظر اليها نظرا باطنيا لا يقتصر على معناها الظاهر ، فقسموا كل مقام الى مراتب متعددة تختلف باختلاف المتحققين بها ، فالتوبة التي هي اول المقامات عادة تكون عند العوام من الذنوب ، اما توبة الخواص فتكون من الغفلة ، بينما توبة الانبياء من عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم وهكذا .....[٢٢] .

وعليه فسأعفي نفسي من الحديث عن التفصيلات التي لا حدّ لها، والتي فاضت بها كتب التصوف ، عن هذه المقامات حتى بلغت بها مئة مقام وحال[٢٣]، لان ذلك يخرج بنا عن الغرض الادبي لهذه الدراسة ، فضلا عن ان المقامات، ان هي الا درجات يتحقق بها السالك لتطهير نفسه وقطع علائقها بالدنيا والاقبال بها كلية على الله ، استعدادا لبلوغ التجربة الحقيقية للصوفي ، وهي لذلك اضعف من ان تستدعي الصوفية لأن يتحدثوا عنها بشعر متميز .

يطلق الصوفية على سالك الطريق الى الله اسم « المريد » ، وهو من « الارادة » التي هي « بدء طريق السالكين واول منزلة القاصدين ، وهي مقدمة كل أمر »[٢٤] ، وحقيقتها : (نهوض القلب في طلب الحق)[٢٥] ، ويصفها ابو علي الدقاق بأنها : « لوعة في الفؤاد .. لدغة في القلب .. غرام في الضمير .. انزعاج في الباطن .. نيران تتأجج في القلوب »[٢٦] ، بحيث تهون من اجلها كل المشاق والاهوال ، كما قيل :

ثم قطعت الليل في مهمهٍ ... لا اسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبني شوقي فأطوي السرى ... ولم يزل ذو الشوق مغلوبا[٢٧]

---

(٢٢) ن . م – ص ٤٨٧ .
(٢٣) منازل السائرين – ص٢٣١ ؛ قوت القلوب – ١ / ٣٦٤ وما بعدها .
(٢٤) الرسالة – ص ٤٣٣ .
(٢٥) ن . م – ص ٣٣٤ .
(٢٦و٢٧) ن . م – ص ٤٣٥ .

على ان المريد في عرف الصوفية « من لا ارادة له »[٢٨] ، بل هي ارادة الله الذى وفقه للارادة ، فهو المريد في نفس الوقت [٢٩] . وقد عبّر ابو عبدالله البرقي عن هذه الفكرة بقوله :

مريد صفا منه سرّ الفؤاد ... فهام به السرّ في كل واد
ففي اى واد سعى لم يجد ... له ملجأ غير مولى العباد
صفا بالوفاء وفى بالصفا ... ونور الصفاء سراج الفؤاد
اراد وما كان حتى اُريد ... فطوبى له من مريد مراد[٣٠]

ومعنى « المقام » عندهم : « مقام العبد بين يدى الله »[٣١] فيما يأتيه « من العبادات والمجاهدات والرياضيات والانقطاع الى الله)[٣١] .

وسلوك الطريق يبدأ عندهم بمقام « التوبة » ، ومبعث التوبة لدى متصوفة الزهاد ، مصادفة واعظة توقظ في النفس الرغبة عن الدنيا وتدفعها الى التجرد كلية الى الله ، وهم يروون في ذلك قصصا كثيرة ، منها قصة اللص الذى دخل بيت رابعة ففتنه حديثها مع ربها فأناب لتوه ، وحين دخلت عليه في السَحر ، وجدته ساجدا يعاتب نفسه ويقول :

اذا ما قال لي ربي ... اما استحييت تعصيني ؟
وتخفي الذنب من خلقي ... وبالعصيان تأتيني ؟
فما قولي له لما ... يعاتبني ويقصيني ؟[٣٢]

---

(٢٨) ن . م – ص ٤٣٣ .
(٢٩) المصدر السابق – ص ٤٣٨ .
(٣٠) التعرف – ص ١٤١ .
(٣١) اللمع – ص ٦٥ ، الرسالة – ص٣٤ .
(٣٢) شهيدة العشق الالهي – ص ١٦٨ .

واذا كان هذا مثلا للتوبة عن الذنب والمعصية ، فهناك مثل اخر للتوبة عن الغفلة يرويه عبدالواحد بن زيد الذى نام عن ورده ، فرأى جارية في المنام تخاطبه بصوت رخيم :

من يشتريني ومن يكن سكنى (يأمن) في ربحه من الغَبَن

وحين سألها عن ثمنها ، قالت :

تودد الله في محبته وطول شكر يشاب بالحَزن

فقال لها : لمن انت يا جارية ؟ فقالت :

لمالك لا يرد لي ثمنا من خاطب قد اتاه بالثمن[٣٣]

ويقال : ان سبب توبة داود الطائي سماعه نائحة تقول :

بأي خديك تبدّى البلى وأي عينيك اذن سالا[٣٤] ؟

وقد كانت توبة ابراهيم بن ادهم وابي سليمان الداراني شبيهة بذلك[٣٥] ، وهذه كلها امارات على ان الله قد كنف هؤلاء بارادته ووفقهم لمعرفته . قال رجل لرابعة : اني اكثرت من الذنوب والمعاصي ، فلو تبت هل يتوب علي ؟ قالت : لا . بل لو تاب عليك لتبت[٣٦] .

على ان الصوفية قد جعلوا التوبة مقرونة بنبذ الدنيا وقطع علائقها ، يقول يحيى بن معاذ :

كيف ارجو توبة تدركني وارى قلبي بويلي يشتغل ؟
ذهبت نفسي بلا شك على انني ادفع دهرى بالعلل[٣٧]

---

(٣٣) حلية الاولياء ـ ٦/١٥٧ ـ ١٥٨ .
(٣٤) الرسالة ـ ص ٧٤ .
(٣٥) ن . م ـ ص ٢٥٥ .
(٣٦) ن . م ـ ص ٢٦٢ .
(٣٧) الحلية ـ ١٠ / ٥١ .

ويقـــول الحـــلاج :

الى كم انت في بحـر الخطايـــا تبـارز من يـراك ولا تـراه[٣٨]

ولكنهم لم يقفوا من التوبة عند هذا الحد بل جعلوها مراتب ، قـــال ذو النون :

« توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة »[٣٩] ، وهكذا فعلوا مع كل مقام وحال .

ويستتبع التوبة « الزهد » في الدنيا ، وهو تقوى الله والورع عـن محارمه ، حياء منه واجلالا له ، يقول النوري :

انـــي اتقيتـــك لامهـــا بـــة مـن محـــاذرة المصير
انـــى وكيف وانت لـــي إلف" يفـــوق مـدى السمير
توفـــي الســـرائر ســـرّها وتحـــوط مكنـون الضمـير
لكـن اجلّـك ان اجـــــلّ .... سـواك للخطـر الحقير[٤٠]

والورع عند الصوفية «اول الزهد » ، وقد بلغ من ورعهم ان الحـارث المحاسبي لم تكن يده تمتد الى طعام فيه شبهة ، وكذلك كان بشر الحافي[٤١] الذي يقـــول :

اقسـم بالله لرضـــخ النـوى وشرب مـــاء القُلب المالحـــة
اعـزّ للانسان مـن حرصـه ومن سؤال الاوجـه الكالحة
فأستغن باليأس تكن ذا غنى مغتبطـاً بالصفقـة الرابحـــة
اليأس عـزّ والتقـى سـؤدد ورغبـة النفس لهـا فاضحـة
من كانت الدنيـا بـه بـرة فأنهـا يوماً لـه ذابحـة[٤٢]

---

(٣٨) شرح الديوان ــ ص ١٣٨ ، (انظر القطعة كاملة) .
(٣٩) الرسالة ــ ص ٢٦٠ .
(٤٠) التعرف ــ ص ٩٩ .
(٤١) الرسالة ــ ص ٢٨٧ .
(٤٢) الحلية ــ ٨ / ٣٤٦ .

ويقول ايضا :

افادتني القناعة اي عز ولا عز اعز من القناعة
فخذ منها لنفسك رأس مال وصيّر بعدها التقوى بضاعة
تحز حالين : تغنى عن بخيل وتسعد في الجنان بصبر ساعة[٤٣]

سئل الشبلي عن الزهد فقال : ان تزهد فيما سوى الله[٤٤] ، وفي ذلك يقول الحلاج : « من اراد ان يصل الى المقصود فلينبذ الدنيا وراء ظهره :

عليك يا نفس بالتسلي فالعز بالزهد والتخلي
عليك بالطلعة التي مشكاتها الكسب والتجلي
قد قام بعضي ببعض بعضي وهام كلي بكل كلي[٤٥]

فالزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا ولا يتأسف على مفقود فيها بل يتركها كما هي[٤٦] ، وهؤلاء هم الذين وصفهم ذو النون بقوله :

ولا عيش الا مع رجال قلوبهم
تحن الى التقوى وترتاح للذكر
سكون الى روح اليقين وطيبه
كما سكن الطفل الرضيع الى الحجر[٤٧]

ومن أمارات الزهد التحلي بالفقر والقناعة وخمول الذكر ، وهو مرادف للصوفية وصفة من صفاتهم، والفقير الصادق « لايسأل ولايرد ولايحبس»[٤٨]، وعلامته « ترك الشكوى واخفاء اثر البلوى »[٤٩] ، يقول ابو علي بن الكاتب (ت بعد ٣٤٠ هـ)[٥٠] :

---

(٤٣) تاريخ بغداد ـ ٧٦/٧ .
(٤٤) الرسالة ـ ص ٢٨٧ .
(٤٥) اخبار الحلاج ـ ص٨٦ .
(٤٦) الرسالة ـ ص ٢٩٤ .
(٤٧) ن . م ـ ص ٢٧٩ .
(٤٨و٤٩) اللمع ـ ص ٧٥ .
(٥٠) طبقات الصوفية ـ ص ٣٨٧ ، معجم الشعراء ـ ص ٩٨ .

ولست بنظّار الى جانب الغنـــى اذا كانت العلياء في جانب الفقر

وقد تبذل الصوفية في لباسهم وطعامهم ، ولا ادل على ذلك من لبسهم المرقعة ومن تسميتهم الجوعية ، ويعلل ذلك ابو علي الروذبارى بقولـه : « لانهم قوم لا ينفعهم الوجود ، اذ الله فاقتهم ، ولا تضرهم الفاقة ، اذ الله وجودهم »[٥١] ، يقول الشبلي :

الناس في العيد قد سُـروّا وقد فرحـوا
ومـا سـررتُ بـه والواحـد الصمد
لمـا تيقنت أنـي لا اعاينكـم
غَمضت طـرفي فـلم انظر الى احد[٥٢]

ويقـول :

تزيّن الناسُ يوم العيد للعيد وقـد لبسـت ثيـاب الزرق والسود
اعـددت نوحـاً وتعـديدا وباكية ضـداً من الراح والريحان والعود
واصبح الكـل مسروراً بعيدهـم ورحت فيكـم الى نـوحٍ وتعديد
اصبحت في تـرح والناس في فـرح شتان بيني وبين الناس في العيد[٥٣]

ولا شك ان موقف الشبلي هذا تعبير عن فاقته بالله التي تبعث فيه شعور الاغتراب عن الناس حتى في عيدهم ، وفي القطعة التالية تعبير اوضح عن هذه الفكرة اذ يقول :

قالو : اتـى العيـد ماذا انت لابسـه ؟
فقلت : خِلعـة سـاقٍ حبّـه جَرَعا
فقـر وصبـر همـا ثوبـاي تحتحمهـا
قـلبٌ يـرى إلفَـه الاعيـاد والجُمَعـا

---

(٥١) اللمع ــ ص ٧٥ .
(٥٢) الديوان ــ ص ٩٧ .
(٥٣) الديوان ــ ص ٩٨ .

الدهر لي مأتم" ـ ان غبت يا أملي
والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

احرى الملابس ما تلقى الحبيب به
يوم التزاور في الثوب الذى خلعا[٥٤]

والفقر يقتضي مقام « الصبر » ، وهو على ثلاثة اوجه : فالمتصبر من صبر في الله ، فمرة يصبر على المكاره ، ومرة يعجز ، يقول الشبلي :

سألبس للصبر ثوباً جميلا وادرج ليلي ليلاً طويلا
واصبر بالرغم لا بالرضا اعلل نفسي قليلاً قليلاً[٥٥]

والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع[٥٦] ، يقول سمنون :[٥٧]

فكم غمرةٍ قد جرّعتْني كؤوسها
فجرّعتُها من بحر صبري أكؤسا

تدرّعت صبري والتحفت صروفه
وقلت لنفسي : الصبر فاهلكي أسى

خطوب لو ان الشمّ زاحمن خطبَها
لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

ويقول ابن عطاء :

سأصبر كي ترضى ، واتلف حرةً
وحسبي ان ترضى ويتلفني صبري[٥٨]

---

(٥٤) ن . م ـ ص ١٠٩ .
(٥٥) الديوان ـ ص ١١٩ .
(٥٦) اللمع ـ ص ٧٦ ـ ٧٧ ، الرسالة ـ ص ٣٩٩ .
(٥٧) التعرف ـ ص ٩٥ .
(٥٨) الرسالة ـ ص ٣٩٩ .

اما الصّبار فذاك الذي صبره في الله ولله وبالله ، وهو اشدها على الصابرين ، وهو الذى يعنيه الشبلي بهذه الابيات :

عبرات خططن في الخدِ سطرا
قد قراها من ليس يحسن يقرا

ان صوت المحب من الم الشوق
وخوف الفراق يورث صبرا

صابَر الصبرَ فأستغاث به الصبرُ فصاح المحبُّ بالصبر صبرا[٥٩]

ويقول ابو علي الكاتب :

واني لصبار على ما ينوبني
وحسبك ان الله اثنى على الصبر[٦٠]

وأنشد بعضهم :

صبرتُ ولم اُطلعْ هواكَ على صبري
واخفيتُ ما بي منكَ عن موضع الصبر

مخافة ان يشكو ضميري صبابتي
الى دمعتي سرا فتجري ولا ادري[٦١]

والصبر عن الله هو الذي يؤرق الصوفية ويخرجهم عن حدّ الاحتمال، وهو صبر المحبين ، وفيه يقول سمنون :

الصبر يجمل في المواطن كلها
الاّ عليك فانه مذموم[٦٢]

---

(٥٩) اللمع ــ ص ٧٧ ، ديوان الشبلي ــ ص ١٠٤ .
(٦٠) طبقات الصوفية ــ ص ٣٨٧ ، معجم الشعراء ــ ص ٩٨ .
(٦١) الرسالة ــ ص ٤٠٠ .
(٦٢) طبقات الصوفية ــ ص ١٩٧ .

وقال الشبلي :

على بُعدك لا يصبـ ... ـرُ من عادتُه القربُ
ولا يقوى على هجر ... ك من تيّمهُ الحب
فمهلا ايها الساقي ... فقد اسكرني الشرب
فان لم تسرك العين ... فقد يبصرك القلب[٦٣]

وقالوا :

وكيف الصبر عمن حلّ مني ... بمنزلة اليمين من الشمال ؟
اذا لعب الرجال بكل شيء ... رأيت الحب يلعب بالرجال[٦٤]

والصبر يفضي الى « التوكل » وهو « ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة ، والاسترسال مع الله على ما يريد » [٦٥] . يقول ابو العباس الدينوري (ت بعد ٣٤٠ هـ) :

اذا عقد القضاء عليك عقدا ... فليس يحله غير القضاء[٦٦]

ويقول سفيان الثوري :

ان كنت ترجو الله فاقنع به
فعنده الفضل الكثير الكثير
من ذا الذى تلزمه فاقة ؟
وذخره الله العلي الكبير[٦٧]

---

(٦٣) الديوان ـ ص ٨٧ .
(٦٤) الرسالة ـ ص ٤٠١ .
(٦٥) اللمع ـ ص ٧٨ .
(٦٦) طبقات الصوفية ـ ص ٤٧٥ .
(٦٧) الحلية ـ ٦ / ٣٧٣ .

وهو سر بين العبد وربه ، وحقيقته ان يكون خالصا لله كما لم يكن ، فيكون الله له كما لم يزل . وقد بالغ الصوفية في التوكل كثيراً حتى قالوا : « التوكل على الله فريضة »[٦٨] وحقيقته ترك التوكل ، وهو ان يكون الله لهم حيث كان لهم اذ لم يكونوا موجودين[٦٩] .

وهكذا تملأ الثقة بالله قلب الصوفي فتنزع منه كل خواطر الخوف من فقر او مرض او خطر[٧٠] ، يقول احمد بن روح :

اذا حلّت البلوى صرختُ لسيد
به تُدفع البلوى وينكشف الضرُ
أؤمل مولى لا يخيّب عبده
له العز والآلاء والخلق والامر[٧١]

وهذا حاتم الاصم يُسأل : من اين تأكل ؟ فيجيب : « ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون »[٧٢] ، ويقول سمنون :

ويحسن ظني انني في فِنائه
وهل أحد في كنّه يجد القرّا[٧٣]

وقد نهوا عن سؤال الناس كثيرا ولم يسوغوه الا في الحالات القصوى، يقول السراج : « من سأل الضرورة لم يأخذ الا ما لابد له من ذلك »[٧٤] . ويقول احمد بن سهل :

---

٦٨) طبقات الصوفية ـ ص ٤١٥ .
٦٩) اللمع ـ ص٧٨ ، التعرف ـ ص١٠١ ، الرسالة ـ ص٣٧٠ .
٧٠) قوت القلوب ـ ٢/٥ وما بعدها .
٧١) الحلية ـ ١٠ / ١٦٦ .
٧٢) المنافقون : ٧ .
٧٣) الحلية ـ ١٠/٣١١ ، طبقات الصوفية ـ ص ١٩٦ .
٧٤) اللمع ـ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

باللـه ابلـغ ما اســعى وادركــه لابـي ولا بشــفيع لي الى النـاس
اذا يئست وكــاد اليأس يقلقنــي جاء الغنى عجبا من جانب الياس[٧٥]

كما كان الكثير من الصوفية يرفضون التطبب ومراعاة احوال الجسم ، زهدا بالبقاء في الدنيا من جهة ، وثقة برعاية الله لهم من جهة اخرى .

يقول ابو الحسين النـورى :

ان كنت للســقم اهــلا فــانت للشــكر (أهـلا)
عذّب فـلم يبــق قــلب يقــول للســقم مهــلا

ولما بلغ الجنيد ذلك قال : ماكنا شاكيّن ولكننا اردنا ان نكشف عـن عين القدرة فينا ، ثم قــال :

أُجــل ما منــك يبــدو لانــه عنــك جــلا
وانت يـا انس قلــبي أجــل من ان تُجــلا
افنيتنــي عــن جميعي فكيف ارعـى المحــلا ؟

فبلغ ذلك الشـبلي فقـال :

محنتــي فيــك انــي لا ابالــي بمحنتــي
يا شـفائي مـن الســقا م وان كنت عــلتي
تبت دهــرا فمــذ عرفتــك ضيّعت توبتــي
قربكــم مثـل بعدكـم فمتى وقـت راحتـي[٧٦]

اما ما يختص بحالهم عند وقوع الخطر ، فقد آلى المتوكلون على انفسهم ان يرتادوا الفيافي والقفار ليواجهوا اخطارها، ويقيسوا ايمانهم بمقدار مايختلج في افئدتهم من هلع وجزع او ثبات واطمئنان ، يقول الشبلي :

---

(٧٥) الحلية ـ ١٠ / ٣٠٤ .
(٧٦) طبقات الصوفية ـ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

ولـو قيل : طـأ في النـار ، أعـلم انـه
رضـا لـك او مُدْنٍ لنـا من وصالكـا
لقدّمت رجـلي نحوهـا فوطئتهـا
سـرورا لاني قـد خطـرت ببالكا[٧٧]

وروووا ان احمد بن عيسى الخراز كان يسلك البادية على التوكل ، وكان يأتيه رزقه كل ثلاثة ايام ، فأبطأ عنه في اليوم الرابع والخامس ، فأحس بضعف، فقال : يا رب اما قوة واما رزق ، فاذا بهاتف يهتف به :

ويزعـم انـا منـه قـريب وانّا لا نضيّع مـن اتانـا
ويسألنا على الاقتار جهـدا كأنّا لا نراه ولا يرانـا[٧٨]

وقد حفلت الكتب الصوفية بالحديث عن هذا الميل الغريب الى مواجهة الاخطار وامتحان الارادة ، كما حدث لابي تراب النخشبي (ت ٢٤٥ هـ) الذى نهشته السباع في البادية[٧٩] ، وابي حمزة الخراساني الذى تعرضنـا لحكايته في فصل سابق .

والمتوكل هذا سائر الى بلوغ مقام « الرضا » . والراضي هو الـذى لايعترض على تقدير الله[٨٠] ، وقد عرفه الجنيد بانه « رفع الاختيار » ، وهو لا يأتي الا بعد مكابدة ومجاهدة ، فهو اخر المقامات ، ونهايته من جملـة الاحوال[٨١] ، وعده القشيري في موضع آخر « من جملة الاحوال »[٨٢] وفي هذا المعنى يقول النوري :

---

(٧٧) الحلية ـ ١٠ / ٣١٠ .
(٧٨) الحلية ـ ٣٣٦/٨ ، احياء علوم الدين ـ ١٩٦/٤ .
(٧٩) الرسالة ـ ص ٩٧ .
(٨٠) ن . م ـ ص ٤٢٢ .
(٨١) ن . م ـ ص ٤٢٢ .
(٨٢) ن . م ـ ص١٩٤ .

ان الرضـــا لمرارات تجرعهـــا عن القنوع اذا ما استعذب الكـدر
عواقب اشهدت بعض الحضور فمـا يرعـى التكثر الا تافـــه نـــزر[٨٣]

وقال عنه ذو النون بانه « سرور القلب بمر القضاء »[٨٤] • انشد رويم :

ولو قلت لي : متْ ، متُّ سمعا وطاعـة
وقلت لداعي المـوت اهـــلا ومرحبا[٨٥]

وقال ابو العباس بن مسروق :

وانـــي لأهـــواه مســـيئا ومحســـنا
واقضي عـلى قلبي لـــه بالـذى يقضي
فحتى متـى روح الرضـــا لا ينالنـــي
وحتى متى ايام سخطك لا تمضي ؟[٨٦]

وجعلوا الرضا ثلاثة انواع ، فمنهم من اسقط الجزع حتى يكون قلبـــه مستويا لله فيما يجرى عليه من حكم ، ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عـن الله برضا الله عنه ، فتستوى عنده الشدة والرخاء والمنع والعطـاء ، سـئلت رابعة : متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : اذا سرّته المصيبة كمـا ســرّته النعمة[٨٧] • ومنهم من جاوز هذا كله وذهب لما سبق من الله لخلقـــه مـن الرضا[٨٨] • ويرى السهروردى « ان الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه، وانشراح القلب من نور اليقين ••• فاذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر

---

(٨٣) التعرف ــ ص ١٠٣ .
(٨٤) اللمع ــ ص ٨٠ .
(٨٥) طبقات الصوفية ــ ص ١٨٤ .
(٨٦) ن • م ــ ص ٢٤١ .
(٨٧) الرسالة ــ ص ٤٢٤ .
(٨٨) اللمع ــ ص ٨٠ ــ ٨١ .

وانفتحت عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والضجر ، لان اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب ... لان المحب يرى ان الفعل من المحبوب مراده واختياره ، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه ، كما قيل : وكل ما فعل المحبوب محبوب »[٨٩] .

وهذا الحلاج يرى ان الخضوع للحبيب والتذلل له كفيلان برجاء عفوه ووصاله :

اذا دهمتك خيول البعاد ... ونادى الاياس بقطع الرجا
فخذ في شمالك ترس الخضوع ... وشدّ اليمين بسيف البكا
ونفسك ، نفسك كن خائفا ... على حذر من كمين الجفا
فان جاءك الهجر في ظلمة ... فسر في مشاعل نور الصفا
وقل للحبيب : ترى ذلتي ؟ ... فجد لي بعفوك قبل اللقا
فوالحب لا تثنني راجعا ... عن الحب الا بعوض المنى[٩٠]

وهكذا تتصل المقامات بالاحوال .

و « الحال » عند الصوفية : « معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب... فالاحوال : مواهب ، والمقامات : مكاسب ... وصاحب المقام ممكّن في مقامه ، وصاحب الحال مترقٍّ عن حاله »[٩١] . ويرى بعضهم ان الاحوال كاسمها : كما تحل بالقلب تزول في الوقت . وانشدوا :

لو لم تحل ما سميت حالا ... وكل ما حال فقد زالا
انظر الى الفيىء اذا ما انتهى ... ياخذ في النقص اذا طالا[٩٢]

---

(٨٩) عوارف المعارف ـ ص ٥١١ .
(٩٠) شرح الديوان ـ ص ١٤٠ .
(٩١) الرسالة ـ ص ١٩٣ .
(٩٢) ن . م والصفحة .

ويرى القشيري ان الاحوال باقية « فقد يصير المعنى شرابا لأحد فيربّى فيه[٩٣] ، وان لصاحب الحال هذه احوالا هي « طوارق » لا تدوم فوق احواله التي صارت شرابا له ، فاذا دامت هذه الطوارق له ، كما دامت الاحوال المتقدمة ، ارتقى الى احوال أُخر ، فوق هذه والطف من هذه ، فابداً يكون في الترقي[٩٤] ، وهكذا نراهم يفرّعون الاحوال الى خواطر ترد على القلب ، كالقبض والبسط والهيبة والانس ... وغيرها ، تشبه درجات السلم الذى يفضى الى مرتبة « الحال » الباقية ، التي تتصل هي كذلك بدرجات اخرى تفضي الى حال باقية اخرى اعلى منها شأنا ، حتى يبلغ الصوفي درجة «المعرفة» .

وهكذا نرى الاحوال تتصل بالذات الداخلية للصوفي فبها يشعر وعنها ينطق واليها يشير ، وعليه فبأمكاننا ان نسمي الشعر الذى يصدر عنها بـ « شعر الرؤية » لانه يصدر عن حالات من التأمل والاستغراق والاستبطان بينه وبين الوجود .

٤» شعر الرؤية الصوفية :ـ

ويمكن ان نضعه تحت خمسة اصناف هي :

آ ـ الحب الالهي : يعتبر « الحب الالهي » حجر الزاوية في الرؤية الصوفية ، وعليه تتأسس نظريتهم في المعرفة بل في الوجود كله[٩٥] ، فالحب هو الذى اخرج الكون من العدم كما رأيناه عند الحلاج الذى يقول :

العشق في ازل الآزال من قِدم
فيه ، به منه ، يبدو فيه ابداء
العشق لاحدث" ، اذ كان هو صفة
من الصفات لمن قتلاه احياء

---

(٩٣) ن . م ـ ص ١٩٤ .
(٩٤) ن . م . والصفحة .
(٩٥) في التصوف الاسلامي ـ ص ٩٢ .

صفاتـــه منـــه فيـــه غـــير محدثـــة
ومحـدث الشيء ما مبـــداه اشـــياء
لمـــا بـدا البـــدء أبـدى عشقه صفـــة
فيمـا بـــدا فتـــلالا فيـــه لألآء[٩٦]

وكما يلخصه الحديث القدسي المعروف : « كنت كنزا مخفيا ، فاحببت ان أُعرف ، فخلقت الخلق ، فبي عرفوني »[٩٧] .

وهكذا كانت المحبة هي « الارادة » (فمحبة الحق .... للعبد ارادته لانعام مخصوص عليه)[٩٨] ، وهي (حالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة ، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم له ، وايثار رضاه ، وقلة الصبر عنـــه ، والاهتياج اليه ، وعدم القرار من دونه ، ووجود الاستئناس بـــدوام ذكره لـــه بقلبـــه)[٩٩] .

لقد وردت كلمة الحب في مواضع كثيرة من القرآن لتدل على عاطفة حانية من الله نحو عبده ، واخرى صاعدة من العبد نحو ربه ، وعاطفة متبادلة بـين الرب والعبد[١٠٠] . ويرى الغزالي ان المحبة اول حال الرسول حين تبتل بحراء، حتى قالت العرب : ان محمدا عشق ربه[١٠١] ، ولما كانت المحبة منّة الهية ، اودع الله بذرتها في قلوب محبيه ، ولما كانت الروح فيضا من الله ومِنّـــة كذلك ، فان الحب طبع فيها مفطورة عليه ، وفاء منها لخالقها . انشد ابو يزيد البســطامي :

---

(٩٦) شرح الديوان ــ ص ١٤٢ ،وانظر عطف الالف المألوف ــ ص ٤٤ .
(٩٧) الديلمي ــ عطف الالف المألوف على اللام المعطوف ــ تحـ : ج . ك . فاديه ــ القاهرة ١٩٦٢ ــ ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .
(٩٨) الرسالة ــ ص ٦١١ .
(٩٩) ن . م ــ ص ٦١٢ .
(١٠٠) ابراهيم بسيوني ــ نشأة التصوف الاسلامي ــ القاهرة ١٩٦٩ ــ ص ١٧٣ .
(١٠١) المنقذ من الضلال ــ ص ٥٣ .

قالت لطيف خيال زارها ومضى :

باللـه صفه ولا تنقص ولا تزد

فقال : خلقته لو مات من عطش

وقلت : قف عن ورود الماء لم يرد

قالت : صدقت ، الوفا في الحب عادته

يا برد ذاك الذي قالت على كبدي[١٠٢]

ويقول سمنون المحب :

جرى فيّ الهوى مذ كنت طفلا

فمالي قد كبرت عن التصابي؟[١٠٣]

ويقول ايضا :

يا معطشي بوصال انت واهبه

هل فيك لي راحة ان صحت واعطشي؟[١٠٤]

ويشبه ابو يزيد الحب بالغرس فيقول :

غرست الحب غرسا في فؤادي فلا اسلو الى يوم التنادي[١٠٥]

ويجعل الشبلي الحبّ الحياة ، كما ان الماء سرّ حياة العودة :

جرى حبك في قلبي كجري الماء في العود[١٠٦]

اما الجنيد فجعله كالنار :

يا موقدَ النار في قلبي بقدرته

لو شئت اطفأتَ عن قلبي بك النارا[١٠٧]

---

(١٠٢) شطحات الصوفية ـ النهضة ١٩٤٩ ـ ص ١٧١ .

(١٠٣) طبقات الصوفية ـ ص ١٩٨ .

(١٠٤) ن . م ـ ص ١٩٧ .

(١٠٥) شطحات ـ ص ١٧٦ .

(١٠٦) طبقات الصوفية ـ ص ٣٤٥ .

(١٠٧) اللمع ـ ص ٣٨١ .

واذا كان الحب تعبيرا عن وفاء الروح لخالقها ، فليس جميع الارواح بقادرة على ان تفي بالحب عن مِنّة الله عليها ، فأهل المحبة ـ كما قلنا ـ مخصوصون بهذه النعمة من لدنه قد اصطفاهم اصطفاء من سائر خلقه ، كما يقول ذو النون :

ولـه خصائص يكلفون بحبـه اختارهم في سالف الازمان
اختارهم من قبل فطرة خلقه بودائع وفوائد وبيان[١٠٨]

بيد ان « منّة الحب » هذه لا تستيقظ فيهم اعتباطا ، فالارواح وان كانت مفطورة على الحب الا ان الجسد قد سجن فيها هذه الفطرة ، وحبس شوقها الى النبع الذى فاضت عنه ، وهي ابدا تواقة الى الانعتاق من اسره ، وقد عبّر الصوفية باكثر اشعارهم غنى وثراء عن المعاناة العميقة التي كانوا يكابدونها في حالات انفصال ارواحهم عن باريها ، وقد فاضت كتب الصوفية بالاقاصيص الغريبة التي رويت عن وجدهم الذى لا مثيل له لدى سماعهم شعرا في الحنين والاغتراب والبعد والهيام والتشرد وما الى ذلك مما كنا اشرنا اليه في الفصل الرابع .

والوجد عندهم : « كل ما صادف القلب من غم او فرح »[١٠٩] ، وهو مكاشفات من الحق تثير فيهم الزفير والشهيق والبكاء والغشية والانين والصعقة والصراخ والصيحة[١١٠] ، ولا يتأتى الا اذا « انقطعت الاسباب ، وخلص الذكر ، وصحا القلب ورق وصفا ، ونجعت فيه الموعظة والذكر ، وحلّ من المناجاة في محل قريب ، وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية ، وقلب شاهد وسرّ طاهر ، فشاهد ما كان منه خاليا »[١١١] .

---

(١٠٨) الحلية ـ ١٠ / ٧٩ .
(١٠٩) اللمع ـ ص ٣٧٥ .
(١١٠) ن . م ـ ص ٣٧٧ .
(١١١) ن . م ـ ص ٣٧٦ .

وبناء على ذلك نستطيع ان نفسر رهافة الحس البالغة التي اتسم بها الصوفية جراء سماعهم او مشاهدتهم ما يثير مواجيدهم ويوقظ ارواحهم ويستثير فيها حنينها الى الله • انشدوا امام الحارث المحاسبي مرة :

انا في الغربة ابكي ما بكت عين غريب
لم اكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي

فقام وتواجد حتى رق له كل من حضره[١١٢] •

وسمع ابراهيم بن ادهم قائلا يقول :

كل شيء لك مغفو ر سوى الاعراض عني
قد وهبنا منك مافا ت بقي مافات مني

فأضطرب وغشي عليه فلم يفق يوما وليلة[١١٣] ، ويسمع ابو الفتح الصوفي هذا البيت :

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

فيتواجد ويصيح ويدق صدره ويغمى عليه ثم يحركونه فيجدونه قد مات[١١٤] ، وكذلك كان سهل بن عبدالله التستري وابو الحسين النوري واضرابهما من الصوفية ، وقد كان الشبلي مثالا للصوفي المغلوب بوجده ، وكثيرا ما كانوا ينشدون الاشعار التي تنم عن الانين الناتج عن البعد ، كما راقتهم شكوى الطيور واشجانها ، وكانوا يستحضرون مثل هذه الاجواء بما يتمثلونه او يسمعونه من اشعار ، وخصوصا اشعار العذريين ، مما اشرنا اليه في الفصل الرابع •

---

(١١٢) طبقات الصوفية ـ ص ٦٠ .
(١١٣) قوت القلوب ـ ٢ / ١١٥ .
(١١٤) نشأة التصوف الاسلامي ـ ص ٢١٩ .

وقد استدعت هذه الحال ان يهيم الصوفية بالحسن ، والصوفي يأنس بكل وجه صبيح وكل صورة مليحة وكل رائحة طيبة[١١٥] .

وكانوا اذا رأوا وجها جميلا او سمعوا صوتاً رقيقا او شهدوا منظرا رائقا ، أخذوا به ورأوا فيه أمارة على الجمال الالهي المطلق ورمزا له ، وقد كان منهم من يقدم المريدين في الصفوف الاولى من حلقات الذكر حتى يدعو ذلك الى وجدهم[١١٦] ، وقد ذكرنا في الفصل الرابع امثلة لوجدهم بالاحداث والنساء والسماع ومناظر الطبيعة ، وكانوا في ذلك ينقلون مشاهداتهم الى ما في نفوسهم من احوال مستعينين بالجمال الحسي ، يقول الشبلي : من طلب الحق بالمجاهدات فهو بعيد عن وصوله الى مطلوبه ، ومن طلبه به تعالى وصل اليه ، ثم ينشد بيتي عمر بن ابي ربيعة :

ايها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يجتمعان ؟
هي شامية اذا ما استهلت وسهيل اذا استهل يماني[١١٧]

وينشد صوفي اخر :

لا تقل : دارها بشرقي نجد كل نجد للعامرية دار
ولها منزل على كل ماء وعلى كل دمنة آثار[١١٨]

وهكذا استعمل الصوفية صفات الحسن البشري وخلعوها على المحبوب الالهي ، يقول ابو علي الروذباري :

وحقك لانظرت الى سواكا بعين مودة حتى اراكا
اراك معذبي بفتور لحظ وبالخد المورد في جناكا[١١٩]

---

(١١٥) عطف الالف المألوف ـ ص ٦٩ .
(١١٦) نشأة التصوف الاسلامي ـ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .
(١١٧) ن . م ـ ص ٢٢٠ .
(١١٨) ن . م . والصفحة .
(١١٩) الرسالة ـ ص ٥٩٣ ـ ٥٩٤ .

وينشد الشـــبلي :

لهـا في طرفهـا لحظـات سـحر تميت بهـا وتحيـي من تريـد
وتسبي العالمـين بمقلتيهـا كـأن العـالمين لهـا عبيـد
الاحظهـا فتعلم مـا بقلبـي والحظهـا فتعلـم ما اريـد[١٢٠]

لقد توسل الصوفية بكل هذه الاساليب من اجل ان تقوى صلتهم الروحية بالله وان ينعتقوا من اسر اجسادهم ، وقد فطنوا كذلك الى ان وجود الروح في ابدانهم يبعث فيهم السعادة ، لان هذه الروح هي اثر من الحبيب تذكرهم به دائما ، يقول الشبلي :

اليس مـن السـعادة ان داري مجاورة" لدارك في البـلاد ؟[١٢١]

وما دام الصوفية قد جعلوا الحب نابعا من الفطرة ، فقد بنوا على ذلك ان محمدا الحبيب ، هو النور الاول ، ومنه انبثقت منذ الازل انوار النبوات، ونبعت منه أسرار الجمال[١٢٢] ، وقد أفاض الحلاج في التنظير لهـذه الفكرة في كتابه « الطواسين » ، يقول : « طس ، سراج من نور الغيب بدا وعاد ، وجاوز السراج ، وساد قمر تجلى من بين الاقمار ، برجه في فلك الاسـرار سمّاه الحق اُميّا»[١٢٣] ، ويقول : « انوار النبوةمن نوري برزت، وانوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الانوار نور أنور واظهر واقدم من القدم ، سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسـمه سبق القلم ، لانه كان قبل الامم »[١٢٤] ، ويقول في ذلك :

---

(١٢٠) الديوان ــ ص ٩٥ .
(١٢١) ن . م ــ ص ٩٨ .
(١٢٢) عطف الالف المالوف ــ ص ٣٣ ــ ٣٤ .
(١٢٣) الطواسين ــ ص ٩ .
(١٢٤) ن . م ــ ص ١١ .

عقـــد النبـــوة مصبـاح مـن النـــورِ
معلـق الوحـــي في مشـــكاة تامـــور
باللـه ينفـخ نفـــخ الـروح في خلـــدي
بخاطـرى نفـخ اسـرافيـــل في الصـور
اذا تجـــلّى بطـــوري ان يكلمنـــي
رأيت في غيبتـي موسى عـلى الطـور[١٢٥]

وقد ساقت الحلاج نظريته هذه الى اعتبار الاديان كافة انما هي اســماء لحقيقة واحدة وفروع لأصل واحد، كما اشرنا الى ذلك في الفصل الثالث من هذا البحث ، ومهما حاول احباء الحلاج ان يفسروا موته على الصليب بانه صليب نفسه . الا ان القرينة هنا توحي بقصده في التحدى حين يقول :

الا ابلـــغ احبائـــي بأنـــي ركبت البحـــر وانكسر السفينة
عـلى دين الصليب يكون موتي ولا البطحا اريد ولا المدينة[١٢٦]

وهو تحد لا ينبعث من التجديف ، وانما من محاولة التسوية المطلقة بين جميع الاديان[١٢٧] . ولم يقف الحلاج عند هذا الحد بل سار في الشوط حتى نهايته، فصار ابليس وفرعون عنده رمزا للبذل والفتوة في استجابتهما للمشيئة، « فلو شاء الله ان يطيع ابليس لأطاع ابليس ، لان الله تعالى لايشاء الّا وقع » ، و « اُغرق فرعون في اليم وما رجع عن دعواه ولم يقرّ بالواسطة البتة »[١٢٨]، وقد لخص هذه الفكرة في قوله :

---

(١٢٥) شرح ديوان الحلاج ــ د . كامل الشيبي ــ مكتبة النهضة ١٩٧٤ ــ ص ١٨٨ .
(١٢٦) شرح الديوان ــ ص ٣٠٧ ــ ٣٠٩ .
(١٢٧) نشأة التصوف ــ ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .
(١٢٨) الطواسين ــ ص ٥١ ــ ٥٢ .

ما يفعـــل العبـــد والاقـــدار جاريـــة
عليـه في كـل حـال ، ايهـــا الرائـي ؟
القـــاه في اليـــم مكتوفـا وقـال لـه :
ايـــاك ايـاك ان تبتـــل بالمـــاء[١٢٩] !

وهكذا يفتح الحلاج ذراعيه للعصاة من بني البشر ، ويتمنى لو يفتديهم بنفسه ، لانه عليم باتساع قلب محبوبه وبرحابة صدره .

وقد رأينا اصولا لهذه النظرة في الحب في الاقوال التي نسبت الى رابعة العدوية والتي تحدثنا عنها في الفصل السابق . بل هي ربما جاوزت ذلك حين سئلت عن حبها للرسول فقالت: « اني والله احبه حبا شديدا ، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين »[١٣٠] .

وبناء على ما تقدم يمكن ان نقول : ان الحب الصوفي هو من قبيل الحب لذاته (الله) ، اي انه بريء من الغرض منزه عن المنفعة ، فليس هو من قبيل الخوف من النار او الطمع في الجنة : جلس ذو النون وحولـه ناس وهـو يتكلم ، والناس يبكون وشاب يضحك ، فسأله ذو النون : مالك ايها الشاب ؟ الناس يبكون ، وأنت تضحك ؟ فأنشأ يقول :

كلهـم يعبدون من خوف نـــار ويـرون النجـاة حظـا جزيـــلا
ليس لي في الجنـان والنار رأي انـا لا ابتغـي بحبـي بديـــلا

فقيل له : فأن طردك .. فماذا تفعل ؟ فأنشأ يقول :

فاذا لم اجـــد من الحب وصلا رمتُ في النار منزلا ومَقيلا
ثم ازعجتُ اهلهـــا ببكائـــي بكـرة في ضرامهـــا واصيـــلا
معشر المشركين نوحـوا فأنـــي انـا عبد احببت مولى جليلا[١٣١]

---

(١٢٩) شرح الديوان ــ ص١٤٥ .
(١٣٠) شهيدة العشق ــ ص ٣٩ ، عطف الالف المألوف ــ ص ٧٥ .
(١٣١) صفة الصفوة ــ ٤ / ٢٩٥ .

ويعلل الجنيد ذلك بقوله : « كل محبة كانت لغرض ، فاذا زال الغرض، زالت تلك المحبة »[١٣٢] ، اما المحبة الصوفية فهي التي يقول عنها الشبلي: انها « تمحو من القلب كل ما سوى المحبوب »[١٣٣] يقول :

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولذا سُمّي الخليل خليلا
فاذا ما نطقت كنت حديثي ... واذا ما سكتُ كنتَ غليلا[١٣٤]

ويقول الحلاج :

حسبي من الحب اني ... لما تحب احب[١٣٥]

ولكيلا يختلط الحب بالفناء ، وعلينا ان نقرر : ان الحب الصوفي يتسم بمشاعر متبادلة بين الحبيب والمحب ، ومشاعر الحب الصوفي هذه هي حالات متدرجة يترقى بها شيئا فشيئا ، ومن اماراتها « الشوق » الى الله ، وهو « هيمان القلب عند ذكر المحبوب »[١٣٦] .

يقول سمنون :

بي منك شوق لو ان الصخر يحمله
تفطّر الصخر عن مستوقد النار[١٣٧]

ويقول الحلاج :

اذا ذكرتك كاد الشوق يقتلني ... وغفلتي عنك احزان واوجاع
وصار كلي قلوبا فيك داعية ... للسقم فيها وللالام اسراع[١٣٨]

---

(١٣٢) الرسالة ــ ص ٦١٩ .
(١٣٣) ن . م ــ ص ٦١٥ .
(١٣٤) الديوان ــ ص ١٢٠ .
(١٣٥) شرح الديوان ــ ص ١٤٩ .
(١٣٦) اللمع ــ ص ٩٤ .
(١٣٧) الحلية ــ ١٠ / ٣١٠ .
(١٣٨) شرح الديوان ــ ص ٢٣٦ .

والشوق يسكن باللقاء والرؤية ، ولكنه لا يزول ، وفي هذا المعنى انشدوا :

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته حتى يعود اليه الطرف مشتاقا[١٣٩]

وآشد شيء على الصوفية أن يُحجبوا عن الحبيب ، وهذا علي بن سهل يتمنى الموت على البعد عن الحبيب :

ليتني مت فاسترحت فاني كلما قلت : قد قربت ، بعدت[١٤٠]

ولذلك اشتاقوا الى الموت لانهم هناك يستطيعون شهود الحق ، قال ابو عثمان : علامة الشوق « حب الموت مع الراحة »[١٤١] ، وفي معناه انشدوا :

نحن في اكمل السرور ولكن ليس الاّ بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا اهلَ ودّي انكم غُيَّبٌ ونحن حضور[١٤٢]

وحتى الجنة عندهم لا تعدل شيئا اذا خلت من وجه الحبيب ، قال ابو يزيد : « ان لله عبادا لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لأستغاثوا من الجنة كما يستغيث اهل النار من النار »[١٤٣] ، يقول الشبلي :

أُسر بمهلكي فيه لأني اُسر بما يَسر الإلف جدا
ولو سئلت عظامي عن بلاها لانكرت البلا وسمعت جحدا
ولو اخرجت من سقمي لنادى لهيب الشوق بي يرجوه ردا[١٤٤]

ويترتب على الشوق « الأنس » بالله وهو : « مداومة النظر الى المحبوب مع سكون النفس اليه » ، قال الشاعر :

---

(١٣٩) الرسالة ــ ص ٦٢٧ .
(١٤٠) طبقات السلمي ــ ص ٢٣٥ .
(١٤١) الرسالة ــ ص ٦٢٧ .
(١٤٢) الرسالة ــ ص ٦٢٩ .
(١٤٣) الرسالة ــ ص ٦٢٩ .
(١٤٤) الديوان ــ ص ٩٣ .

انست بـه فـلا ابغـي سـواه مخافة ان اضـل فـلا اراه[١٤٥]

وقال الشبلي : الانس « وحشتك منك ومن نفسك ومن الكون »[١٤٦] ، وفي هذا المعنى يقول رويم :

شـغلتَ قلبـي بمـا لديك فـلا ينفك طـول الحيـاة عن فكـر
آنستني منـك بالوداد فقـد اوحشتني من جميع ذا البشـر
ذكرك لـي مؤنس يعـارضني يوعدني عنـك منـك بالظفـر
وحيثمـا كنت يا مـدى هممي فـانت مني بموضع النظـر[١٤٧]

وهكذا يتخلل الله نفس الصوفي بحيث لا يرد عليـه وارد الاّ ويكون شاهدا على حضوره ، قال سمنون :

قـد دبّ حبـك في الاعضـاء من جسدى
دبيب لفظـي من روحـي واضمـاري
فـلا تنفسـت الاّ كنت مـع نفسـي
وكل جارحـة من خاطـري جـاري[١٤٨]

ويقـول الجنيـد :

وما تنفسـت الاّ كنت مـع نَفسـي
تجرى بك الروح مني في مجاريهـا[١٤٩]

وهكذا يغدو المستأنس بالله في حال من السكون التام لرعاية ربـه وتصريفه له ، والطمأنينة الكاملة اليه ، والعبودية الخالصة لوجهه ، فليس هناك

---

(١٤٥) عطف الالف المألوف ـ ص ٢١ .
(١٤٦) اللمع ـ ص ٤٧ .
(١٤٧) عوارف المعارف ـ ص ٥١٢ .
(١٤٨) الحلية ـ ١٠ / ٣١٠ .
(١٤٩) اللمع ـ ص ٤٢٤ .

احساس بالزمن بل يستوي عنده الليل والنهار ويتحولان الى « وقت » ، يقول سمنون :

احن باطراف النهار صبابةً
وفي الليل يدعوني الهوى فأجيب
وايامنا تبقى وشوقي زائد
كأنّ زمان الشوق ليس يغيب[١٥٠]

ويقول الحلاج :

طلعتْ شمسُ مَن احب بليل
فأستضاءت فما تلاها غروب

ان شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليس تغيب[١٥١]

ويقول ذو النون راويا عن احد المجانين من اهل الطريق :

اعميت عيني عن الدنيا ورؤيتها
فأنت والروح شيء غير مفترق
اذا ذكرتك وافى مقلتي ارق
من اول الليل حتى مطلع الفلق
وما تطابقت الاجفان عن سِنة
الا رأيتك بين الجفن والحدق[١٥٢]

وهكذا يشهد الصوفي ربه حتى في نومه ، ولكن منهم من يغالب النوم كي ينال مزيدا من العذاب في مزيد من الوقت ، يقول ابو الحديد :

---

(١٥٠) طبقات الصوفية ـ ص ١٩٨ .
(١٥١) الديوان ـ ص ١٦٠ .
(١٥٢) صفة الصفوة ـ ٤ / ٣١٣ .

اهابك ان اقـول هلكت وجـدا عليك ، وقد هلكت عليك وجـدا
ولو ان الرقـاد دنـا لطرفـي جلدت جفونهـا بالدمع جلدا[١٥٣]

بينما يرى ابو عبدالله القرشي ان كـل شيء بامـر الله ، ان يتعب او يسترح فبأمر منه ، وليس على العبد الا الطاعة ، وفي ذلك يقول جوابا على بيتي ابـي الحـديد :

ولكنـي اقـول حييت حقـا اذا الوجـد المبـرح منـك يهـدا
وان حـلّ الرقاد بجفن عينـي رقدت اجابة لك ، لا لأهدا[١٥٤]

وهكذا يستحيل الزمن لدى الصوفي الى « وقت » سرمد ، ليست أمارته طلوع الشمس او غروبها ولا نهارها ولا ليلها ، بل قربه او بعده من حبيبه ، هجره او وصله له ، ولهذا قالوا : « الصوفي ابن وقته » [١٥٥] ، وتبعا لحلاوة الوقت تكون الجنة او تكون النار ، وكذلك المكان ، اذ ليس هو الا ما يشهد الحبيب فيه ، يقول الحلاج :

فمـا حـال في سـري لغـيرك خاطـر"
ولا قـال ـ الا في هـواك ـ لسـاني
فـان رمت شرقا انت في الشرق شرقـه
وان رمت غربـا انت نصب عيانـي
وان رمت فوقـا انت في الفـوق فوقه
وان رمت تحتاانت كـل مكـان[١٥٦]

---

(١٥٣) اللمع ـ ص ٣٢٦ .
(١٥٤) ن . م ـ ص ٣٢٧ .
(١٥٥) الرسالة ـ ص ١٨٨ .
(١٥٦) شرح الديوان ـ ص ٣٠٦ .

ويقـــول الشـــبلي :

والهجـر لو سكن الجنان تحـــولت نِعم الجنان على العبيد جحيمـا
والوصل لو ســكن الجحيم تحولت نار الجحيم على العبيد نعيمـــا[١٥٧]

وقد عانى الصوفية معاناة مريرة جراء احساسهم بتقلب اوقاتهـــم وتلونها ، حتى بلغت هذه المعاناة حدّ الموت ، قال ابو علي الروذباري : رأيت في البادية حدثا يجود بنفسه ويقول : اما يكفيه ان شغفني بحبه حتى عذّلني ؟ فقلت له : قـل لا اله الاّ الله ، فأنشأ يقول :

أيـا من ليس لـــي عنـــه وان عذّبني ، بُـــدّ
ويـا من نـــال من قلبـي منـــالا مالـــه حـدّ[١٥٨]

ويعتبر الشعر الذى عبّر عن هـذه المعاناة اقـــرب ما يمس النفس ويحركها من الشعر الصوفي ، خصوصا وانهم قد عبروا عن معاناتهم هذه بلغة المحبين والشاربين العاشـقين ، المحملة بنكهة الصراع الحي الذي لا يكـاد يتميز عن معاناة العشاق والمحبين ، فالجنيد يرى ان للهجر شواهد يعرفها اهـل المحبـة :

مـالي جُفيت وكنت لا أُجفـى وشـواهد الهجـــران لا تخفـى
واراك تســـــقيني وتمزجـــني ولقد عهدتك شاربي صرفا[١٥٩]

ويقـول الشبلي متمثـــلا :

اني ، وان كنتَ قد اسأتَ بي اليوم ، لراج للعطف منـــك غـــدا
استدفع الوقـت بالرجـــاء وان لم ارَ منكـم ما ارتجـي ابـــدا
اغـــر نفسي بـــكم واخدعهـــا نفسا ترى الغيّ فيكم رَشدا[١٦٠]

---

(١٥٧) ن . م ــ ص ١٢٣ .
(١٥٨) الرسالة ــ ص ٥٩٦ .
(١٥٩) اللمع ــ ص ٣١٩ .
(١٦٠) طبقات الصوفية ــ ص ٣٤٥ .

ويقول سمنون :

تريد مني اختبار سري وقد علمت المراد مني
وليس لي في سواك حظ فكيف ما شئت فأمتحني[١٦١]

ويقول ايضا :

ضاعف عليّ بجهدك البلوى وابلغ بجهدك غاية الشكوى
واجهد وبالغ في مهاجرتي واجهر بها في السرّ والنجوى
فاذا بلغت الجهد فيّ فلم تترك لنفسك غاية قصوى
فأنظر ... فهل حال بي انتقلت عما تحب بحالة اخرى ؟[١٦٢]

وكما ان المحبة سرّ بين الحبيب والمحب لا يحسن اطلاع الغير عليه ، بل يحرصان على ان يبقى خاصا بهما يستعذبان وجده وتبريحه ، كذلك الامر في الحب الصوفي ، فهو سرّ في قلب العبد يحرص على كتمانه كل الحرص ، يقول الشبلي :

صحّ عند الناس اني عاشق غير أن لم يعلموا عشقي لمن ؟[١٦٣]

وهم يرون ان المحبين من البشر اذا استعانوا على ادامة حبهم بالكتمان، فان الصوفية اخلق بكتمان حبهم الالهي ، لان العبد اذا ناء بحب خالقه فلمن يشكوه ؟ أيشكوه لمن خلقه وهو اللطيف الرحيم ؟ يقول سمنون المحب :

ولا خير في شكوى الى غير مشتكى
ولابد من سلوى اذا لم يكن صبر[١٦٤]

---

١٦١) الحلية ـ ١٠ / ٣١٠ .
١٦٢) تاريخ بغداد ـ ٩ / ٢٣٥ .
١٦٣) الديوان ـ ص ١٢٤ .
١٦٤) صفة الصفوة ـ ٢ / ٢٨٩ .

لذلك جهد الصوفية في اخفاء حبهم وستره حتى عن الحبيب نفسه حياء منه واجلالا له ، يقول ابو العباس بن عطاء :

اجلك ان اشكو الهوى منك ، انني
اجلك ان تومي اليك الاصابع
واصرف طرفي نحو غيرك عامدا
على انه بالرغم نحوك راجع[١٦٥]

وهم يلتمسون القدرة على كتمان حبهم من الحبيب نفسه . فهو الذى خصهم بهذه المنة ، وهو الذي يقوّي ارادتهم على حملها ، يقول ابو علي الروذباري :

بك كتمان وجده بك عنه
لك منه ، وعنك مالك منه
من اذا لاح لائح لمشوق
هام وجدا عليك ، ان لم تسكنه
واذا افل الأفول ببين
بان عنه ، فبان ان لم تبنه
يا فتى الحب ، بل فتى الحق ، سرّي
عنك مستودَع لديك ، فصنه[١٦٦]

وهكذا يضطرم الصراع بين حب يزداد اتقادا ، وارادة تجهد في اخفائه :

ابى الحب ان يخفى وكم قد كتمته ؟
فأصبح عندي قد اناخ واطنبا

---

(١٦٥) طبقات الصوفية ــ ص ٢٧١ .
(١٦٦) طبقات الصوفية ــ ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩ .

اذا اشتد شـوقي هـام قلبـي بذكـره
وان رمت قربـا من حبيبـي تقربـا
ويبـدو فأفنـى ، ثث احيـا بـه لـه
ويسـعدني حتـى الـذ واطربـا[١٦٧]

وتبلغ الشدة مداها عند الفراق ، ذلك ان قدرة العبد على الثبات انما هي مشمولة برعاية المولى لها ولطفه بها ، لكنها لحظة الفراق تغدو مرهونة بالارادة الانسانية وحدها ، وانى لها ان تقوى على احتمال ذلك ؟

تبيّن يـوم البـين انّ اعتزامـه
على الصبر من احدى الظنون الكواذب[١٦٨]

وكان الزفير والشهيق والبكاء والغشية والانين والصعقة والصراخ والصيحة ، امارات تنم عن نفاد الصبر وخروج الامر عن الكتم ، والعين اول ما يفصح عن ذلك ، فالصب تفضحه عيونه :

دموع الفتـى عمّـا يجـن تترجـم
وانفاسه يبـدين ما القـلب يكتـم[١٦٩]

والنفس هو الاخر ينم عما في القلب من حرقة ولوعة ، يقول الجنيد :

نمّ على سرٍ وجـد النّفسُ والدمـع مـن مقلتيـه ينبجس
مُدكّـه هـائم لـه حـرق انفاسـه بالحنـين تختلس[١٧٠]

---

١٦٧) صفة الصفوة ـ ٤ / ٣٧٨ .
١٦٨) الرسالة ـ ص ٤٠٤ .
١٦٩) ن . م ـ ص ٥٣٤ .
١٧٠) اللمع ـ ص ٣١٩ .

ولم تكن دموع العين وحدها هي التي تشي بوجد المحبين ، بل هناك دموع القلب التي يستنزلها الشوق اللاعج ، يقول سمنون :

بكيت ودمع العين للنفس راحة"
ولكنّ دمعَ الشوق يكوى به القلب
وذكري لما القاه ليس بنافعي
ولكنه شيء يهيج به الكرب
فلو قيل لي : ما انت ؟ قلت : معذّب"
بنار مواجيد يضرّمها العتب[١٧١]

ومع ذلك فأن الاساس في الحب الصوفي هو الكتمان ، يقول ابو الحسين النورى :

لعمري ما استوعتُ سري وسرّه
سوانا ، حذارا ان تشيع السرائر
ولكن جعلت الوهم بيني وبينه
رسولا ، فأدى ما تكنّ الضمائر[١٧٢]

وقد كان الصوفية يبذلون كل جهد لكتم حبهم ووجدهم حتى بلغ التمويه ببعضهم حد ادعاء الجنون ، سترا لحالهم مع المحبوب ، غير عابئين بقول الناس فيهم • يروي ذو النون عن احد هؤلاء المجانين قوله :

هجرت الورى في حب من جاد بالنعم
وعفت الكرى شوقا اليه فلم أنم
وموّهت ذكري بالجنون عن الورى
لاكتم ما بي من هواه فما انكتم[١٧٣]

---

(١٧١) طبقات الصوفية ـ ص ١٩٩ .
(١٧٢) اللمع ـ ص ٣١٩ ـ ٣٩٤ .
(١٧٣) صفة الصفوة ـ ٤ / ٢٢٣ .

وقد تغمر موجة الحب محبا ولها ، فاذا به يصاب بنوبة فجائية تخرجه عن وعيه ، فينهال على بدنه ايذاء وتنكيلا، وهذه أدعى صور الافصاح الى الرثاء، يروى ان سمنون كان جالسا على شاطيء دجلة ، وبيده قضيب يضرب به فخذه حتى بان عظمه وتبدد لحمه وهو يقول :

كان لي قلب اعيش به ... ضاع مني في تقلّبه
ربّ فارددهُ عليّ فقد ... ضاق صدري في تطلبه
وأغث ما دام بي رمق ... يا غياث المستغيث به[174]

وبوجه عام كان الصوفية الى جانب صون السر الالهي وعدم البوح به ، وكانوا يرون في ذلك أمارة على تمكّن الحب من نفس الصوفي وثبوته وصدق توجهه الى ربه ، يقول السراج : « الا ترى احدهم يكون ساكنا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ، وقد يكون من هو اقوى منه ساكنا في وجده لا يظهر منه شيء من ذلك »[175] ، وسئل الجنيد عن سكونه وقلة اضطرابه عند السماع ، فقال : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب صنع الله الذى اتقن كل شيء »[176] ، ويجعل الشبلي من نفسه وحيدا بين المحبين من اهل الهوى ، لانه كتم هواه وباح به غيره :

بـاح مجنونُ عامرٍ بهواه
وكتمتُ الهوى ففزتُ بوجدي

فاذا كان في القيامة نودي :

« اين اهل الهوى » ؟ تقدمت وحدي ![177]

---

(١٧٤) طبقات الصوفية ـ ص ١٩٧ .
(١٧٥) اللمع ـ ص ٣٧٥ .
(١٧٦) اللمع ـ ص ١٢٨ ، النحل : ٨٨ .
(١٧٧) الديوان ـ ص ٩٩ .

ويبدو ان خروج الحلاج على هذا الاتجاه هو الذى دعا بعض الصوفية الى اتهامه بافشائه السّر الالهي فعوقب بالموت جراء ذلك[١٧٨] ، ومن امارات هذا الخروج قول الحلاج :

الحب ، ما دام مكتوما ، على خطر
وغاية الامن ان تدنو من الحذر
وأطيبُ الحب ما نمَّ الحديثُ به
كالنار لا تأتي نفعاً وهي في الحجر
من بعد ما حضر السجان ، واجتمع ألا
عوان ، واختط اسمي صاحب الخبر
ارجو لنفسي براء من محبتكم
اذا تبرأت من سمعي ومن بصري![١٧٩]

ويبدو ان الحلاج كان يعد نفسه ليكون على غرار المسيح المُخلّص ، فأفضى بالمكنون وفض المختوم حتى تتم له بغيته[١٨٠] .

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث ظهرت في مشرق العالم الاسلامي طائفة « المُلامَتيّة » الذين لا يكتفون بكتمان علائقهم بسولاهم ، بل يعمدون الى القيام باعمال تثير سخط الناس وملامتهم ، وقد قاد ابو صالح حمدون بن احمد القصار النيسابوري (ت ٢٧١ هـ) هذه الطائفة التي تنفر اشد النفور من الدعوى والرياء . وكان يقول : « لا تفش على احد ما تحب ان يكون مستورا منك »[١٨١] . وكان لا يبيح الكلام الا « اذا تعين عليه اداء فرض من فرائض الله ... او خاف هلاك انسان في بدعة ... »[١٨٢] .

---

(١٧٨) في التصوف الاسلامي وتاريخه ـ ص ١٠٥ .
(١٧٩) شرح الديوان ـ ص٢١٠ .
(١٨٠) نشأة التصوف ـ ص ٢٣٤ .
(١٨١و١٨٢) الرسالة ـ ص ١٠٤ .

وهذه الظاهرة وامثالها انما كانت ردّ فعل للتيارات المختلفة التي هبت على المجتمع الاسلامي حينذاك ، ومن ذلك غلبة التعصب السني على بغداد ، وتعرض الكثير من الصوفية للتعذيب والنكال . حتى قال الجنيد مصورا روح العصر : « لايصل امرؤ الى مرتبة الحقيقة مالم يعامله الف صديق لـه كأنـه زنديق »[١٨٣] . وفضلا عن ذلك فقد كثر الادعياء والمتلبسون الذين اضفوا على انفسهم مسحة التصوف ، وكلفوا بالاستحواذ على اعجاب الجماهير باعمال لا يتسترون في ادعائها ، الامر الذى دعا رجال التصوف الى اعلان التشديد على الالتزام بطريق صوفي شاق ، كي يقتلعوا ما قد ينبت في النفوس من عُجب وغرور . وهو ما اشرنا اليه في الفصل الثالث .

ب ـ السكر الصوفي :

نعني بالسكر الصوفي تلك النشوة العارمة التي تفيض بها نفس الصوفي ، وقد امتلأت بحب الله حتى غدت قريبة منه كل القرب . وقد عبر الصوفية بالفاظ متقابلة عن حالات هذه النشوة ودرجاتها ، كالغيبة والحضور ، والصحو والسكر ، والذوق والشرب ، وغيرها[١٨٤] ، مما جمعه الحلاج في احدى المقطوعات المنسوبة اليه ، ومنها قوله :

وسكر ثم صحو ثم شوق وقرب ثم وصل ثم أنس
وقبض ثم بسط ثم محو وفرق ثم جمع ثم طمس[١٨٥]

وتحدثوا منذ وقت مبكر حديث الكأس والشراب ، فلقد شهد داود الطائي (ت ١٦٤ هـ) مبتسما ، فلما سئل عن دواعي ذلك قال : « اعطوني صباحا شرابا يقال له شراب الأنس ، فاليوم عيد ، اسلست نفسي للابتهاج فيه »[١٨٦] ، وكتب يحيى بن معاذ الرازي الى ابي يزيد يقول :

---

(١٨٣) نشأة التصوف الاسلامي ـ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .
(١٨٤) الرسالة ـ ص ٢١٤ وما بعدها .
(١٨٥) شرح الديوان ـ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .
(١٨٦) في التصوف الاسلامي وتاريخه ـ ص ٢١ .

« سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته » ، فكتب اليه ابو يزيد : غيرك شرب بحار السموات وما روى بعد ، ولسانه خارج على صدره ، وهو يصيح: العطش ، العطش ، وينشد :

عجبت لمن يقول : ذكرتُ ربي ... وهل انسى فاذكر ما نسيتُ ؟
اموت اذا ذكرتك ثم احيا ... ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى واموت شوقا ... فكم احيا عليك وكم اموت ؟
شربت الحب كأسا بعد كأس ... فما نفد الشراب وما رويت[١٨٧]!

ويرى السقطي استاذه معروفا الكرخي تحت العرش يقول الله عنه : « هذا معروف الكرخي سكر من حبي فلا يفيق ... الا بلقائي »[١٨٨] . والسكر الصوفي حال من الدهش الفجائي يعترى العبد فيذهله عن كل حس غير حضور الحبيب ، ويغمر نفسه بنشاط دفاق يوقد فيها الوله والهيمان، وما كان ذلك ليحدث بالطبع لولا امتلاء القلب بحب الله ، فالسكر ، كما يقول الشبلي ، ثمرة المحبة :

ان المحبة للرحمن تسكرني ... وهل رأيت محبا غير سكران[١٨٩]؟

والشراب الصوفي ليس خمرا تدير الرأس وتثقل الحواس وتضرب غشاوة على القلب ، بل هي على العكس، توقظ النفس وتنعش الوجدان وتجلو عين البصيرة وتفتح امام القلب ارحب الافاق ، نسب للشبلي قوله :

الغيم ، رطب ينادي : ... يا غافلين الصبوحُ
فقلت اهلا وسهلا ... ما دام في الجسم روح[١٩٠]

---

(١٨٧) الرسالة ـ ص ٢٢١ و ٦٢٠ .
(١٨٨) ن . م ـ ص ٦١ .
(١٨٩) الديوان ـ ص ١٢٩ .
(١٩٠) الديوان ـ ص ١٤٠ .

وما دامت الخمرة الصوفية تفتح للروح هذه العوالم الجذابة الشائقة ، فانها ابدا تغري بالمزيد من الشراب « فاذا كوشف العبد بنعت الجمال حصل السكر • وطرب الروح • وهام القلب » ، وفي معناه انشدوا :

فصحوك من لفظي هو الوصل كله
وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا
فما ملّ ساقيها وما مل شارب
عقارَ لحاظ كأسه يسكر اللبا(١٩١)

واذ تسكر الروح ويهيم القلب فماذا تفعل هذه الخمرة بالاجسام ؟ يقول الخراز :

اديرت كؤوس للمنايا عليهم
فاغفوا عن الدنيا كأغفاء ذي السكر
همومهم جوّالة بمعسكر
به اهل ودّ الله كالانجم الزهر
فأجسامهم في الارض قتلى بحبه
وارواحهم فيالحجب نحو العلا تسري
فما عرسوا الاّ بقرب حبيبهم
وما عرجوا عن مسّ بؤس ولا ضر(١٩٢)

وهكذا تستولي تجليات الحبيب على قلب الصوفي فلا يشهد سوى الحق ، لان حضور الحبيب في قلب الصوفي هو محو لشعوره بذاته او بما حوله ، وفي ذلك قال بعضهم :

---

(١٩١) الرسالة ــ ص ٢١٧ .
(١٩٢) ن . م ــ ص ٥٩١ .

فحالان لي .. حالان ، صحو وسكرة

فلا زلت في حالي ّ اصحو واسكر

كفاك بأن الصحو اوجد كربتي

فكيف بحال السكر والسكر اجدر ؟

وجدت الهوى ان كنت ـ مذ جعل الهوى

عيونَك لي عينا تغض وتبصرُ ـ

نظرت الى شيء سواك ، وانما

ارى غيرنا احلام نوم يُقدرّ[١٩٣]

وهكذا فالصوفي بين حالين ؛ حال وصل الحبيب وحضوره وامتلاء القلب به وهو ما يسمونه « صفو الوجد » الذى يقول فيه قائلهم :

تحقق صفو الوجد منا فما لنا علينا ، سوانا ، من رقيب يخبّر[١٩٤]

وحال ورود ما يكدر الشراب ويعكر الكأس ، وفيه يقول الجنيد :

قد كان لي مشرب يصفو برؤيتكم

فكدرته يد الايام حين صفا[١٩٥]

وتتميز الكأس الصوفية بتأثيرها العنيف الغلاب ، فهي تصطلمهم عن نفوسهم وتختطفهم منها ، فتمحوهم بالكلية حتى لا تبقي شظية من اثار البشرية ، هذه الكأس هي التي يصفها القائل :

اذا ما بدت لي تعاظمتها فأصدر في حال من لم يَرد

فيُصطلم الكل مني بها ويُحجب عني بها ما اجد[١٩٦]

---

(١٩٣) اللمع ـ ص ٤١٦ .

(١٩٤) ن . م ـ ص ٤١٧ .

(١٩٥) طبقات الصوفية ـ ص ١٦٣ .

(١٩٦) اللمع ـ ص ٤٥٠ .

واذ يمحو حضور الحبيب في قلب الصوفي شعوره بذاته او بما حوله ، بحيث يحلّ الوجود الشهودي محل الوجود الوجودي ، فلا يعود سوى الله مشهودا ، يقول الشبلي :

فلما اراني الوجد أنك حاضري ... شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلم ... ولاحظت معلوماً بغير عيان[١٩٧]

وبذلك تبدأ لغة الشَطْح ، و « الشَطْح » في اللغة «الحركة» ، يقال : شطح الماء في النهر ، اذا فاض الماء الكثير عن حافتي النهر الضيق . «فكذلك المريد الواجد : اذا قوي وجده ، ولم يطق حمل ما يرد على قلبه من سطوة انوار حقائقه ، سطع ذلك على لسانه بعبارة مستغربة مشكلة على فهوم سامعيها ، الا من كان من اهلها »[١٩٨] .

وقد لقي الصوفية ، جرّاء شطحاتهم ، أسوأ العَنت والنَكال ، باعتبارها اسطع مظهر على مجافاة الشريعة . ويتجلى الشطح ، كمظهر تعبيري في العنصرين الباقيين من الفناء ، واعني بهما : زوال الحجب ، وغلبة الشهود .

ج ـ زوال الحجب :

يسعى الصوفي دائما الى اسقاط الوسائط بينه وبين الحبيب ، ويرى ان قيام اية واسطة يعني ان الوصول لم يتم بعد ، اذ ان آية الواسطة هي رؤية الاسباب ، يقول ابو علي الروذباري :

من لم يكن بك فانيا عن حبه ... وعن الهوى والانس بالاحباب
او تيّمتْه صبابة جمعت له ... ما كان مفترقا من الاسباب
فكأنه بين المراتب واقف ... لمنال حظ او لحسن مآب[١٩٩]

---

(١٩٧) تاريخ بغداد ـ ١٤ / ٣٩٠ .
(١٩٨) اللمع ـ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .
(١٩٩) اللمع ـ ص ٤٣٥ .

وقد وجد الصوفية ان « الشريعة » هي اول ما ينبغي اسقاطه من وسائط بين العبد وربه ، فحاولوا ان يتغلغلوا في كل شعيرة من شعائر الدين ويزيحوا عنها شكلها التقليدي ، ليبلغوا منها جوهرها الاصيل ، وبذلك اقاموا الشريعة على وجهها الاخر الذى اسموه « الحقيقة » . وهو ما كان يجر عليهم عنت الفقهاء ورجال الدين التقليديين . ولذلك جهدوا في تأويل الطقوس الدينية تأويلا باطنيا ، وتحويلها الى رموز نفسية تطهر الباطن من درن الجسد وتكسبه خصوبة وحيوية ونقاء . وقد لمسنا هذا الاتجاه لدى اوائل الصوفية من امثال رابعة العدوية ومعروف الكرخي ومن تلاهما . يقول يحيى بن معاذ : « مثقال خردلة من الحبّ اليّ من عبادة سبعين سنة بلا حُب »[٢٠٠] .

لقد نزّه الصوفية عباداتهم وشعائرهم عن اى غرض او منفعة ، بل اتخذوها وسيلة لمعرفة الحبيب وليس لبلوغ الجنة او النجاة من النار ، وهذا ابو بكر الشبلي يناجي ربه قائلا : « الهي أَحبَّك الخلق لنعمائك وانا احبك لبلائك »[٢٠١] .

ويناشد الحلاج ربه فيقول :

اريدك لا اريدك للثواب ولكني اريدك للعقاب
وكل مآربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب[٢٠٢]

وكانت اخص العبادات التي لقيت منهم اهتماما ، الحج والصلاة، لكثرة ما فيهما من رسوم ورموز[٢٠٣] ، يقول ابن عطاء : في البيت مقام ابراهيم وفي القلب آثار الله ، وللبيت اركان وللقلب اركان ، واركان البيت من الصخر ، واركان القلب معادن انوار المعرفة[٢٠٤] .

---

(٢٠٠) الرسالة ـ ص ٦٢١ .
(٢٠١) الشعراني ـ الطبقات الكبرى ـ مصر ـ ١ / ١١٥ .
(٢٠٢) شرح الديوان ـ ص ٣٣٥ .
(٢٠٣) نشأة التصوف الاسلامي ـ ص ٢٥٠ .
(٢٠٤) طبقات الصوفية ـ ص ٢٦٧ .

ويقول الشبلي :

لستُ من جملة المحبين ان لم اجعل القلب بيته والمقاما
وطوا في اجالة السرّ فيه وهو ركني اذا اردت استلاما[٢٠٥]

اما الصلاة فلا يرى ابو يزيد فيها الاّ « نَصب البدن »[٢٠٦] ، ويقول الشبلي مداعبا :

نسيت اليوم من عشقي صلاتي فلا ادري عِشائي من غداتي[٢٠٧]

ولذلك استعانوا بالذكر على اتمامها ، بل آثروه عليها احيانا ، لانه لا يرتبط بقيد من القيود ، ولانهم يريدون تسخير كل لحظة لتذكر المحبوب ، بل ان الذكر نفسه يصبح عديم القيمة شيئا فشيئا ، ذلك لان استجماع الشعور في سبيل الذكر قد انتفى بذهاب الشعور نفسه ، حين يتجاوز الصوفي دائرة الحب ويخترقها الى بؤرة الفناء ، فقمة الذكر ان تفنى في المذكور ، وهكذا فهو يصل الى ايجابيته عند وصوله الى منتهى سلبيته[٢٠٨] ، يقول ابو يزيد كنت ثلاثين سنة اذكر الله ، ثم سكنت ، فاذا حجابي ذكره له »[٢٠٩] .

ويعتبر الحلاج الذكر واسطة ، والا فضل في احداث الوله الا لله :

انت المولّه لي لا الذكر ولّهني
حاشا لقلبي ان يعلق به ذكري
الذكر واسطة تخفيك عن نظري
اذا توشحه من خاطري فكري[٢١٠]

---

٢٠٥) شرح الديوان ـ ص ١٢٢ .
٢٠٦) شطحات ـ ص ٩٤ .
٢٠٧) الديوان ـ ص ١٥٧ .
٢٠٨) نشأة التصوف الاسلامي ـ ص ٢٥٣ .
٢٠٩) شطحات ـ ص ٨١ .
٢١٠) شرح الديوان ـ ص ٢٠٢ .

ويقـول في موضع اخـر :

اذا بلـغ الصبُّ الكمـالَ من الهـوى
وغـاب عن المذكور في سـطوة الذكـر
فشاهد حقـا حـين يشهـده الهـوى
بان صـلاة العارفـين مـن الكفـر[٢١١]

ولم يقف الامر لدى الصوفية عند ازالة الحجب عن المفهوم التقليدي للجنةوالنار ، او عن الظواهر السائدة للعبادات ، بل تجاوز ذلكالى ما هوادق واعمق واعني بها الصلة بين العبد وربه .فقد كان التصور الاسلامي السـائد يقيم بونا شاسعا لا يمكن ارتياده بين الله والعبد ، على حين سعى الصوفية الى اقامة صلة حميمة من الحب بينهم وبين ربهم ، بحيث اذابوا الحدود وكشفوا الحجب وازاحوا الغشاوة ، متوسلين لذلك بالخلاص من اسر الجسد . وبلوغ درجة الفناء عبر طريق شاق من المجاهدات . ويذكر القشيري ثـلاث مراتب للفناء : الاولى هي الفناء عن النفس وصفاتها بالبقاء بصفات الحق . والثانية هي الفناء عن صفات الحق بشهود الحق . والثالثة هي الفناء عن شهود الحق بالاستهلاك في وجود الحق[٢١٢] . ولقد ضاق الصوفية ذرعا بجسديتهم التي تعيقهم عن الاتصال بالحبيب ، واحسوا بعبئها احساسا اليما ، يقول الحلاج:

بينـــي وبينـــك إنّـــي يزاحمنـــي
فارفـع بلطفـك انّيـي مـن البـين[٢١٣]

---

(٢١١) ن . م – ص ١٩٦ .
(٢١٢) الرسالة – ص ٢١٣ .
(٢١٣) شرح الديوان – ص ٢٩٩ .

وقد جهدوا في الانعتاق من الجسدية بكل السبل ، بما فيها طلب الموت، يقول الحلاج :

عجبت لكلي كيف يحمله بعضي
ومن ثقل بعضي ليس تحملني ارضي
لئن كان في بسط من الارض مضجع
فقلبي على بسط من الخلق في قبض[٢١٤]

ويقول :

حويت بكلي كلّ كلّك يا قدسي
تكاشفني حتى كأنك في نفسي
اقلّب قلبي في سواك فلا ارى
سوى وحشتي منه وانت به انسي
فها انا في حبس الحياة مُمَنَّع
من الانس ، فأقبضني اليك من الحبس[٢١٥]

ومن هنا جاء افتتان الصوفية في تعذيب اجسادهم ، اذ ما دامت الروح عائدة الى باريها حيث الحياة الحقيقية ، فأن هذا الجسد ما هو الاّ ترب رميم لا قيمة له ، يقول الحلاج :

اقتلوني يا ثقاتي ... انّ في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي ... وحياتي في مماتي
انا عندى محو ذاتي ... من اجلّ المكرمات
وبقائي في صفاتي ... من قبيح السيئات
سئمت روحي حياتي ... في الرسوم الباليات[٢١٦]

---

(٢١٤) شرح الديوان ـ ص ٢٣٣ .
(٢١٥) ن . م ـ ص ٢٢٥ .
(٢١٦) ن . م ـ ص١٦٦ .

ولحين موعد الخلاص من سجن الجسد ، قام الصوفية بعملية استبدال عجيبة ، فأستعانوا عن قلب الجسد النابض بالدم بقلب نابض بالحب، فكان ان استحال الصوفي روحا سعيدا نشوان متخففا من اعباء بشريته في سيره نحو الحياة المنشودة ، طليقا كالشرارة المتوهجة ، متجاوزا الابعاد والحدود. يقول الحلاج :

مكانك من قلبي هو القلب كله
فليس لشيء فيه غيرك موضع
وحطتك روحي بين جلدى واعظمي
فكيف تراني ـ ان فقدتك ـ اصنع؟[٢١٧]

وآية نجاح هذا الاستبدال ، هو شعور الصوفي بأن كنهه قد احتوى شيئا اكبر من سعته[٢١٨] :

افتش سرّي عن هواكم فلا ارى
سواي ، واني عنك والكنه اكبر
فان وجدتْ أني ، ففي الوجد انها
فان عبّرت عني ، فعنها تعبّر[٢١٩]

ويقول الحلاج :

غبت وما غبت عن ضميري فما زَجتْ ترحتي سروري
واتصل الوصل بأفتراق فصار في غيبتي حضوري
فانت في سرٍّ غيب همي اخفى من الوهم في ضميري
تؤنسني بالنهار حقا وانت عند الدجا سميري[٢٢٠]

---

(٢١٧) ن . م ـ ص ٢٣٥ .
(٢١٨) نشأة التصوف ـ ص ٢٥٥ .
(٢١٩) اللمع ـ ص ٤٦٦ .
(٢٢٠) شرح الديوان ـ ص ٢١٢ .

وفي هذا المعنى يقول ابو يزيد البسطامي :

بعدك مني هو قربك أخذتني عنك بمعناك
لا تفرق الاوصاف ما بيننا ان قيل لي : يا .. كنت اياك[٢٢١]

وفضلا عن شعور الصوفية بتغير صفاتهم ، فانهم قد مدّوا هذا التغير الى الزمان والمكان فجردوهما من نسبيّتهما ، سئل ابو يزيد : كيف اصبحت؟ قال : لا صباح ولا مساء انما الصباح والمساء لمن تأخذه الصفة ، وانا لا صفة لي[٢٢٢] ، و « سأله رجل : اني سمعت انك تعبر الى المشرق والمغرب في ساعة ، فقال : يكون هذا ، لكن هذا للمؤمن عناء ، انما المؤمن من الجوهر، أنّى يطلع فيكون المشرق والمغرب بين يديه ، فيتناول من حيث شاء »[٢٢٣] .

ومن هنا تبدأ غلبة الشهود .

د ـ غلبة الشهود :

وهي المرتبة الثانية من مراتب الفناء التي قال عنها القشيري : انها فناء العبد « عن صفات الحق بشهوده الحق »[٢٢٤] ، ومعنى ذلك ان شعور الصوفي ذاته قد اختفى نهائيا ، وفني تماما في مشاهدة الحق حتى « نسي نفسه وما سوى الله ، فلو قلت له : من اين انت واين تريد ؟ لم يكن له جواب غير قول « الله » »[٢٢٥] ، واذ يبلغ الصوفي هذه المرتبة يصدر عنه مثل هذا القول :

رأيت ربي بعين قلبي فقلت : من انت ؟ قال : انت
فليس للأين منك اين وليس اين بحيث انت
وليس للوهم منك وهم فيعلم الوهم اين انت ؟
ففي فنائي فنا فنائي وفي فنائي وجدت انت

---

(٢٢١) شطحات ـ ص ١٣١ ، ديوان الشبلي ـ ص ١١٨ .
(٢٢٢) شطحات ـ ص ١١١ .
(٢٢٣) ن . م ـ ص ١١٢ .
(٢٢٤) الرسالة ـ ص ٢١٣ .
(٢٢٥) اللمع ـ ص ٤٩٩ .

في محو اسمي ورسم جسمي سألت عني فقلت : انت
اشار سرّي اليك حتى فنيت عني ودمت انت[٢٢٦]

وقد كانت مثل هذه الحال تحدث شعورا حادا بالانفصام بين الصوفي وبين الناس ، وكم ودّ الصوفية لو كتموا ما يشهدون ، ولكنهم اذ تدهق كأس الوجد فانها تأخذهم عن انفسهم وتمحو كل ارادة فيهم ، فينطقون في غيبة الوعي حتى لو ضرب وجه احدهم بالسيف لما احس به ، ومع ذلك فقد كان الصوفية حريصين كل الحرص على ان تقترن « حريتهم » في الفناء عن اوصاف البشرية بـ « عبوديتهم » في مراعاة اداب الشريعة وفرائضها ، يقول ابو عبدالله المغربي : « انما تصح العبودية لمن افنى مراداته وقام بمراد سيده، يكون اسمه ما سمي به ونعته ما حلّي به . اذا سُمّي باسم اجاب عن العبودية، فلا اسم له ولا رسم ، لا يجيب الا لمن يدعوه بعبودية سيده » ، ثم بكى وانشأ يقول :

لا تدّعُني الا بـ «يا عبدها » فأنها اصدق اسمائي[٢٢٧]

وقد ردّ السراج في مقالتين عقدهما في « اللمع » على التشويهات التي فهمت من اقوال قسم من الصوفية بشأن « فناء الاوصاف » و « فناء البشرية » . فقال: « فمنهم من ترك الطعام والشراب وتوهم ان البشرية هي القالب . والجثة اذا ضعفت زالت بشريتها ، فيجوز ان يكون موصوفا بصفات الالهية ، ولم تحسن هذه الفرقة ... أن تفرق بين البشرية واخلاق البشرية . لأن البشرية لا تزول عن البشر ، كما ان لون السواد لا يزول عن الاسود . ولا لون البياض عن الابيض ، واخلاق البشرية تبدل وتغير بما يرد عليها من سلطان انوار الحقائق ، وصفات البشرية ليست هي عين البشرية »[٢٢٨] .

---

(٢٢٦) شرح ديوان الحلاج ـ ص ١٧٧ ؛ شطحات ـ ص ١٠٩ .
(٢٢٧) طبقات الصوفية ـ ص ٢٤٥ .
(٢٢٨) اللمع ـ ص ٥٤٣ .

اما بشأن الفناء عن الاوصاف ، فقال : « وقد غلطت جماعة من البغداديين في قولهم : انهم عند فنائهم عن اوصافهم ، دخلوا في اوصاف الحق ، وقد اضافوا انفسهم ، بجهلهم ، الى معنى يؤديهم ذلك الى الحلول : ... » ، والصحيح عند الطوسي ، ان الارادة للعبد وهي من عند الله ، عطيته ، ومعنى خروج العبد من اوصافه والدخول في أوصاف الحق : خروجه من ارادته ودخوله في ارادة الحق ، وبمعنى ان يعلم ان الارادات : « هي عطية من الله تعالى ، وبمشيئته شاء ، وبفضله جعل له مايعطيه، ذلك قطعه عن رؤية نفسه ، حتى ينقطع بكليته الى الله تعالى ، وذلك منزل من منازل اهل التوحيد . واما الذين غلطوا في هذا المعنى ، انما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم حتى ظنوا ان اوصاف الحق هي الحق ، وهذا كله كفر ، لان الله تعالى ، لا يحلّ في القلوب ، ولكن يحلّ في القلوب الايمان به ، والتوحيد له ، والتعظيم لذكره ، بمعاني التحقيق والتصديق »[٢٢٩] . وفضلا عن ذلك ففي كتاب اللمع كثير من المقالات الرامية الى بيان حقيقة ما تنطوي عليه شطحات الصوفية ـ رغم ما تبدو عليه من منافاة للشعور الاسلامي العام ـ من احساس روحي عميق بالالوهية .

ورغم ذلك كله ، فمن غير اليسير ابدا ان يقتنع المسلم التقليدي بعروجات ابي يزيد ، التي نقلنا بعضا منها في الفصل الاول ، او بشطحاته المعروفة من مثل قوله : « سبحاني ! ما اعظم شأني ! » ، وغيرها مما نقله الطوسي في اللمع ، وابدى براعة مرموقة في تأويلها والدفاع عنها[٢٣٠] .

اما الحلاج ، فيتسم معراجه الروحي بسمة التجريد اللاهوتي ، الذى يتحدث عن سر النشأة الاولى وفيض الروح وخلق آدم واللاهوت والناسوت، ليعود بذلك كله الى نقطة الصدور الاولى التي هي « الحب » ، فالانسان صادر عن الله حبا منه في ذلك ، وعليه فالانسان مفطور على الحب :

---

(٢٢٩) اللمع ـ ص ٥٥٢ .

(٢٣٠) ن . م ـ ص ٤٥٩ .

انا سرّ الحق ما الحق انا　　بل انا حق ففرّق بيننا
انا عين الله في الاشيا فهل　　ظاهر في الكون الا عيننا[٢٣١] ؟

فالانسان لدى الحلاج سر الله ، احب ان يراه مصوراً ، فبراه على صورته:

سبحان من اظهر ناسوته　　سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا　　في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه　　كلحظة الحاجب بالحاجب[٢٣٢]

وما « آدم » على ذلك الا لمعنى قديم ، وظاهر محدث لباطن ازلي ، ومتكثر متعدد لواحد فرد ، فأستحق بذلك سجود الملائكة اذ جمع اللاهوت والناسوت[٢٣٣] :

جحودي لك تقديسُ　　وظني فيك تهويس
وقد حيّرني حب　　وطرف فيه تقويس
وقد دلّ دليل الحب ان القرب تلبيس
وما آدم الاّ　　ومن في البين ابليس[٢٣٤]

وقوله :

ياسرّ سرٍ يدق حتى　　يخفى على وهم كل حي
وظاهراً باطناً تجلى　　لكل شيء بكل شي
ان اعتذاري اليك جهل　　وعُظْمُ شك وفرط عيّ
يا جملة الكل لستَ غيري　　فما اعتذاري ـ اذن ـ الي[٢٣٥]

---

(٢٣١) شرح الديوان ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٢٣٢) ن . م ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٢٣٣) نشأة التصوف ـ ص ٢٦١ .
(٢٣٤) شرح الديوان ـ ٢٢٠ .
(٢٣٥) ن . م ـ ص ٣١٥ .

وبذلك شهد الحلاج الحقيقة المطلقة ، بعد ان نحّى ظواهرها التي تتكثّر بها ، وتنسدل عليها ، فتحجب جوهرها عن الناس ، فلا يستطيع ان ينفذ اليها الا اهل الذوق والوجدان :

فالكـــل يشـــهده كـــلا ، واشـــهده
مع الحقيقة ، لا بالشخص مع طللـه[٢٣٦]

ويقـــول :

ظهـرتَ لقـــوم والتبســـتَ لفتيـــة
فتاهوا وضـلوا واحتجبت عـن الخلـق
فتظهـــر للالبـاب في الغـرب تـــارة
وطورا عن الابصار تغرب في الشرق[٢٣٧]

واذا كانت تجربة ابي يزيد تتسم بتحليقها الشاعرى الجامح ، فأن تجربة الحلاج تتسم بحدتها وعنفها ومرارتها :

يا موضعَ الناظر مـن ناظري ... ويا مكانَ السـر من خاطري
يا جملـةَ الكـل التي كلهـا ... احبُّ من بعضي ومن سائري
تراك ترثي للـــذي قلبـــه ... مُعلَّـق في مخلبـــي طائـر
مُدَلّه" حيران مســتوحش ... يهـرب مـن قفـر الى آخـــر
يسري وما يدري واســـراره ... تسري كلمح البارق النائر
كسرعـة الوهم لمـن وهمـــه ... عـلى دقيـق الغامض الغائـــر
في لُجٍّ بحر الفكر تجري به ... لطائف من قـدرة القـادر[٢٣٨]

---

(٢٣٦) ن . م – ص ٢٥٣ .
(٢٣٧) ن . م – ص ٢٤٥ .
(٢٣٨) شرح الديوان – ص ١٩٤ – ١٩٥ .

ويقـــول ايضـــا :

ومـــا وجـــدتُ لقلبـــي راحـــةً ابدا
وكيف ذاك ، وقـــد هُيِّيتُ للكـــدر ؟

لقـــد ركبت عـــلى التغـــرير ، واعجبـــا
ممن يريد النجـــا في المسلك الخطـــر[٢٣٩]

وتجربة الحلاج . وان كانت تنتهي الى دين امي يقوم على الحب، ويوحّد بين الناس جميعا ، فانه ربما كان يشعر بثقل العبء الذي يتطلبه تحقيق مثل هذه الرسالة ، رغم انه راهن بدمه من اجلها .

اما تجربة الشبلي فهي اقرب الى طبيعة الشعر من سواها ، اذ كان يمزج احاسيسه الصوفية المجردة بروح مايشاهده، وغالبا ما كان يلتجيء الى غيره حين لايجد في نفسه قدرة على التعبير عما يحس ، لذلك كثر تمثله باشعار غيره من الشعراء ، وفي مقدمتهم العذريون[٢٤٠] . ومع ذلك فتجربة الشبلي لا تختلف في نتيجتها عن غيره ، اذ هي تفضي به ايضا الى تجريد لا نهائي ، الزمان فيه سرمد : « انتم اوقاتكم مقطوعة ووقتي ليس له طرفان »[٢٤١] ، ويقول :

تسرمد وقتـــي فيك فهو مسرمـــد وافنيتني عنـــي فعدت محـــددا
تغرّب امـــري فأنفردت بغربتـــي وافنيتني عني فصرت مجردا[٢٤٢]

---

(٢٣٩) ن ــ م ــ ص ٢١٧ .
(٢٤٠) مقدمة الديوان ــ ص ٦٨ وما بعدها .
(٢٤١) اللمع ــ ص ٤٨٨ .
(٢٤٢) الديوان ــ ص ٩٨ ، واللمع ــ ص ٤٤٢ .

والمكان لا نهائي ، يقول :

ومن اينَ لي اين" ؟ واني . كما ترى ،
اعيش بلا قلب ، واسعى بلا قصد[٢٤٣]

وهذه حالة « المحو » التي اجاب عنها الشبلي حين سأله رجل : « ما لي اراك قلقا ، اليس هو معك . وانت معه ؟ فقال : لو كنت انا معه ، كنت انا . ولكني محو فيما هو »[٢٤٤] .

اما المرحلة الاخيرة من مراحل الفناء فقد قال عنها القشيري : « وغاية همة القوم ان يمحقهم الحق عن شاهدهم ، ثم لا يردهم اليهم بعدما محقهم عنهم »[٢٤٥] ، والمحق في الاصطلاح الصوفي : « فناء وجود العبد في ذات الحق »[٢٤٦] ، وهو الذى قال عنه الحلاج :

اتحد المعشوق بالعاشق انقسم الموموق للوامق
واشترك الشكلان في حالة فأمتحقا في العالم الماحق[٢٤٧]

وهذه هي المرحلة العليا من مراحل الفناء التي ببلوغها تكون المعرفة .

هـ ـ المعرفة :

وهي اعلى درجات الفناء . وغاية سفر الصوفي الى ربه ، اذ هو يفني عن شهود الحق بالاستهلاك في وجوده . «وهو لاستهلاكه فيوجوده... مختطف عن احساسه لكل وصف له » ، لأنه محيت رسومه وفنيت هويته... وغيبت آثاره » [٢٤٨]، و « اوحى الله اليه بخواطره وحرس سرّه ان يسنح فيه غير

---

٢٤٣) الديوان ـ ص ٩٥ .
٢٤٤) الرسالة ـ ص ٢٢٣ .
٢٤٥) الرسالة ـ ص ٢٢٣ .
٢٤٦) الجرجاني ـ التعريفات ـ مصر ١٩٣٨ ـ ص ١٨١ .
٢٤٧) شرح الديوان ـ ص ٢٤٧ .
٢٤٨) الرسالة ـ ص ٦٠٣ .

خاطر الحق »[٢٤٩] فاذا نطق « نطق الحق عن سره وهو ساكت »[٢٥٠] . والعارف فارغ من الدنيا والاخرة[٢٥١] . « فلا يرى في نومه غير الله ، ولا في يقظته غير الله ، ولا يوافق غير الله ، ولا يطالع غير الله »[٢٥٢] . والى ذلك اشار عمرو بن عثمان المكي : « ان قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شيء ، وشاهدوا كل الكائنات به ، فكانت مشاهدتهم لديه ولهم بـه ... »[٢٥٣] .

والمعرفة الصوفية نداء داخلي يمتلأ به قلب الصوفي الذي كلاه حبيبه بالولاية ، فيلبّيه ضرورة واتساقاً كما لباه الحلاج :

لبّيك لبّيك ، يا سرّي ونجوائي
لبّيك لبّيك ، يا قصدي ومعنائي
ادعوك ، بل انت تدعوني اليك ، فهل
ناديتُ اياك ام ناديتَ ايائي ؟[٢٥٤]

والولاية الصوفية[٢٥٥] هي التي وصفها الحلاج قائلا : « اذا اراد الله ان يوالي عبدا من عباده ، فتح عليه باب الذكر ، ثم فتح عليه باب القرب ، ثم اجلسه على كرسي التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب : فيريه الفردانية بالمشاهدة ، ثم ادخله دار الفردانية ، ثم كشف عنه الكبرياء والجمال ، فاذا وقع بصره على الجمال بقي بلا هو . فحينئذ صار العبد فانيا وبالحق باقيا »[٢٥٦].

---

(٢٤٩) ن . م – ص ٦٠٥ .
(٢٥٠) ن . م – ص ٦٠٧ .
(٢٥١) ن . م – ٦٠٥ .
(٢٥٢) ن . م – ص ٦٠٧ .
(٢٥٣) اللمع – ص ١٠١ .
(٢٥٤) ن . م – ص ١٤٦ .
(٢٥٥) انظر عنها : كتاب ختم الاولياء لابي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي – تحقيق عثمان اسماعيل يحيى – بيروت ١٩٦٥ .
(٢٥٦) ختم الاولياء – ص ٤٥٨ .

يقـــول الحـــلاج :

انـا انت بـــلا شـــك فسـبحانـك سبحاني
وتوحيدك توحيـدي وعصيانـك عصيانـي
واسخاطك اسـخاطي وغفرانك غفـــراني[٢٥٧]

وهذه هي الرتبة العليا من المعرفة ، وانما تحصل لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية التي لا فوقها غاية ، كما يقول ابن خلدون[٢٥٨] ، وهي السعادة القصوى التي يعبر عنها الحلاج بقوله :

غبت وما غبت عن ضمـــيري فمـا زجت ترحتـــي سروري
واتصـــل الوصـل بأفتـراق فصـار في غيبتـي حضـوري
فأنت في ســـرّ غيب همـــي اخفى من الوهـم في ضميري
تؤنسني في النهـــار حقـــا وانت عند الدجا سميري[٢٥٩]

وبقولـــه :

لم يبـق في القلب والاحشـــاء جارحـــة
الاّ واعرفـــه فيهـــا ويعرفـــني[٢٦٠]

ويقـــول الشـــبلي :

ليس تخلـــو جوارحـي منـك وقتـــا
هـــي مشـــغولة بحســـــل هواكـــا
ليس يجـــري عـــلى لســـاني شـــيء
ـ عـــلم اللـه ذا ـ ســـوى ذكراكـــا

---

(٢٥٧) شرح الديوان ـ ص ٢٩٥ .
(٢٥٨) شفاء السائل لتهذيب المسائل . بعناية الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، اسطنبول ١٩٥٨ ـ ص ٢٦ .
(٢٥٩) شرح الديوان ـ ص ٢١٢ .
(٢٦٠) شرح الديوان ـ ص ٢٣٨ .

وتمثلت حين كنت بعيني

فهي - ان غبت او حضرت - تراكا[٢٦١]

والمعرفة الصوفية موطنها القلب الذي امتلأ بالله « فرحا وسرورا ويقينا .. فأنشرح الصدر وانفسح ، فصارت الآخرة له كالمعاينة ، ولاحظ الملكوت بتلك العين ، عين الفؤاد ، في فسحة ذلك النور المشرق في الصدر ، فرأى شأنا عجيبا من عظمة الله »[٢٦٢] . يقول ابو سعيد الخراز :

قلب به تجتني الاذهان فطنته

اذا سمت بك يا عزّي ومُفتخَري

مريخات من الشجو الدفين لها

كوامن جمعت في السمع والبصر

سبحان من لويشا ابدى عجائبها

حتى ترى سرّها في الوجه كالقمر[٢٦٣]

وكلما امتلأ القلب بالحب زاد امتلاؤه بالمعرفة ، والمعرفة الكاملة انما هي حصيلة الحب التام ، وعندئذ لا تغدو للعلوم الاخرى اية اهمية لدى الصوفية. فهذه العلوم ما تزال ترى الله غائبا وبعيدا ، بينما هو عند العارفين حاضر قريب ، يتحققونه في ذواتهم ويناجونه بقلوبهم ، فيتجلى لهم مشرقا وضيئا ، يقول الجنيد :

وتحققتك في السرّ ... فناجاك لساني

فأجتمعنا لمعان وافترقنا لمعاني

ان يكن غيّبك التعظيم عن لحظ عياني

فلقد صيرّك الوجد من الاحشاء داني[٢٦٤]

---

(٢٦١) شرح الديوان - ص ١١٧ .

(٢٦٢) نشأة التصوف الاسلامي - ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢٦٣) اللمع - ص ٢٢٦ .

(٢٦٤) ن . م - ص ٢٨٣ .

ويقـــول :

فلما رآني الوجد انك حاضري　　شهدتك موجودا بكـل مكان
فخاطبتُ موجودا بغـير تكلّـم　　ولاحظت معلوما بغير عيـان[٢٦٥]

وقـــال :

حاضـرٌ في القلـب يعمـــره　　لســـت أنســـاه فاذكـــره
فهـو مولائـــي ومعتمـــدى　　ونصيبي منـــه أوفـره[٢٦٦]

وبذلك لم يعد بالصوفية حاجة الى البحث عن الله خارج الذات، بطريق الاستدلال عليه بما خلق ، لأن شعورهم الدائم بوجوده وشهوده قد ملأهم يقينا به وطمأنينة اليه ، يقول الخوّاص :

لقـد وضح الطريق اليك قصدا　　فمـا احـــد ارادك يســـتدل
فـان ورد الشـتاء فأنت صيف　　وان ورد المصيف فانت ظل[٢٦٧]

وقد سخر الصوفية من حجة العقليين في معرفة الله القديم الخالق عن طريق المحدَث المخلوق ، يقول ابو عبدالله الجلاّء (ت ٣٠٦ هـ) :

كيفيّةُ المـرء ليس المـرءُ يدركهـــا
فكيف كيفيـــة الجبـــار في القِدَم ؟
هـو الـذي احـــدث الاشـياء مبتدعـا
فكيف يدركـــه مستحدث النسَم؟[٢٦٨]

---

(٢٦٥) الرسالة ـ ص ٤٦٧ .
(٢٦٦) الرسالة ـ ص ٥٩٦ .
(٢٦٧) اللمع ـ ص ٣٢١ .
(٢٦٨) شذرات الذهب ـ ٢ / ٢٤٩ .

ويقـــول الحـــلاج :

وايةٌ الارض تخلـو منك حتى تعـالوا يطلبونـك في السـماء ؟
تراهم ينظـرون اليـك جهـــرا وهم لايبصرون من العَماء[٢٦٩]

ولذلك استخفّ الصوفية بالاشتغال بالعلوم العقلية (علوم الشريعة)، لانها لا تغني في معرفة الله . يقول الشبلي : « كتبت الحديث والفقه ثلاثين سنة حتى اسفر الصبح . فجئت الى كل من كتبت عنه فقلت : اريد فقه الله تعالى ، فما كلمني احد »[٢٧٠] . والشبلي هو القائل :

تسربلتُ للحرب ثـوب الغـرق وجُبت البـلاد لوجـد القلـق
ففيـك هتكت قنـاع الغـويّ وعنـك نطقت لـدى من نطـق
اذا خاطبونـي بعلـم الـورق برزت عليهم بعلـم الخرق[٢٧١]

وهكذا فالعقل عند الصوفية غير قادر على معرفة السـر الالهـي ، لأن الله لا يُدْرَكُ الاّ بعون منه . اذ « ان الدليل على الله هو الله وحده، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته الى الدليل ، لانه مُحدَث ، والمحـدث لا يدل الا على مثله . قال رجل للنوري : ما الدليل على الله ؟ قال : اللـه . قـال : فمـا العقـل ؟ قال : العقل عاجز . والعاجز لا يدل الا على عاجـز مثله »[٢٧٢] ، يقول الحلاج :

من رامـه بالعقـل مسترشـدا اسـرحـه في حـيرة يلهـو
قـد شاب بالتلبيس اسـراره يقول في حيرته هـل هـو ؟[٢٧٣]

---

(٢٦٩) شرح الديوان ــ ص ١٤١ .
(٢٧٠) اللمع ــ ص ٤٨٧ .
(٢٧١) الديوان ــ ص ١١٤ .
(٢٧٢) التعرف ــ ص ٦٣ .
(٢٧٣) الديوان ــ ص ٣١٠ .

وهذه الفكرة هي الاساس الذى يستند اليه الصوفية في نظريتهم في الفناء الصوفي والرياضات المؤدية اليه[٢٧٤] ، فالله هو الذى يرفع عن العارف حجاب الغيرية والاثنينية بحيث يصبح العارف عين المعروف ، وهذا هو الصوفي[٢٧٥] ، فالموحّد يجب عليه ان يفنى عن نفسه في الوحدة الالهية اذا اراد أن يصل الى مقام التوحيد، وقد عرّف التوحيد بأنه « تحقق العبد بصفات الآلهية بفنائه عن صفات البشرية ، بحيث تكون آخر حاله ما كان من اول حاله، ويكون كما كان قبل ان يكون »[٢٧٦] ، مستشهدين على ذلك بآية العهد ذات المغزى الخاص في نظر الصوفية : « واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ، الست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ...»[٢٧٧].

وقد بنى الصوفية على ذلك ان التوحيد لا يصح بوجود الاثنينية ، قال الشبلي : « لا يصح التوحيد الا لمن كان جحده اثباته ، فسئل عن الاثبات قال : اسقاط الياءات[٢٧٨] اي « لا تقول لي وبي ومنّي والي » [٢٧٩] ، وهو ما اجاب عنه الجنيد حين سئل عن التوحيد فقال : سمعت قائلا يقول :

وغنّى لي من قلبي وغنيت كما غنى
وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا[٢٨٠]

وهكذا فالتوحيد سر في القلب لا تقوى عليه العبارة ، قال الشبلي : « من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد »[٢٨١] ، ذلك لان الله كما

---

(٢٧٤) في التصوف الاسلامي وتاريخه ـ ص١١٨ .
(٢٧٥) ن . م ـ ص ١١٦ .
(٢٧٦) اللمع ـ ص ٤٩ ـ ٥٠ .
(٢٧٧) الاعراف : ١٧٢ .
(٢٧٨) اللمع ـ ص ٥٤ .
(٢٧٩) ن . م والصفحة .
(٢٨٠) الرسالة ـ ص ٥٨٨ .
(٢٨١) ن . م ـ ص ٥٨٦ .

يقول سهل بن عبدالله : « قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلّهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه[٢٨٢] » ، الامر الذى حدا بالصوفية الى ان قالوا : « ما عرفه غيره ولا احبه سواه » ، وقد عبّر الجنيد عن حيرته بقوله : « اشرف كلمة في التوحيد : ما قاله ابو بكر •• سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته »[٢٨٣] .

يقول الحلاج :

لست بالتوحيد الهو غير اني عنه اسهو

كيف اسهو ؟ كيف الهو؟ وصحيح انني هو[٢٨٤] ؟

وهكذا تنتهي التجربة الصوفية الى حيرة عدمية بائسة ، وكم جهد الصوفية في ان ينقلوها شعرا ، الا انهم لم ينالوا من ذلك الا حظا يسيرا ، وهو ما سيناقشه الفصل الاخير •••

وعلينا ان نشير في ختام هذا الفصل الى ما ورد على لسان بعض رجال التصوف من اشعار يسيرة ، تعبر عن حالات شخصية لا علاقة لها بتجاربهم الصوفية . الامر الذى لا يسوغ اعتبار مثل هذه الاشعار مما يدخل في الشعر الصوفي ، وعليه فقد أستثنيت من هذه الدراسة[٢٨٥] .

---

(٢٨٢) ن . م – ص ٥٨٥ .

(٢٨٣) اللمع – ص ٥٧ .

(٢٨٤) شرح الديوان – ص ٢١١ .

(٢٨٥) انظر مثلا : شرح ديوان الحلاج : قطعة رقم ١٠ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٧ . ٣٨ ، ٤٦ ، ٦٤ ، ٨٢ . وانظر : شعر الحلاج : ن . م – ص ٨–١٣ .

ديـوان الحلاّج

جمع المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون

القسم الأول

حلاّجيات

القصيدة الأولى: التلبية

لبّيكَ لبّيكَ يا سرّي و نجوائـــــــي لبّيك لبّيك يا قصدي و معنائـــي
أدعوك بلْ أنت تدعوني إليك فهــلْ ناديتُ إيّاك أم ناجيتَ إيّائـــــي
يا عين عين وجودي يا مدى هممي يا منطقي و عباراتي و إعيائـــي
يا كلّ كلّي يا سمعي و يا بصري يا جملتي و تباعيضي و أجزائي
يا كلّ كـــلّي و كلّ الكـــلّ ملتبس و كل كـــلّك ملبوس بمعنائـــــي
يا من به عُلقَتْ روحي فقد تلفت وجدا فصرتَ رهينا تحت أهوائي
أبكي على شجني من فرقتي وطني طوعاً و يسعدني بالنوح أعدائـــي
أدنو فيبعدني خوف فيقلقنـــــي شوق تمكّن في مكنون أحشائـــي
فكيف أصنع في حبّ كَلِفْتُ به مولاي قد ملّ من سقمي أطبّائـــي
قالوا تداوَ به منه فقلت لهــم يا قوم هل يتداوى الداء بالدائـــي
حبّي لمولاي أضناني و أسقمني فكيف أشكو إلى مولاي مولائـــي
انّي لأرمقه و القلب يعرفــه فما يترجم عنه غير ايمائـــــي
يا ويحَ روحي من روحي فوا أسفي عليَّ منّي فإنّي اصل بلوائـــــي
كانّني غَرق تبدو أناملـــــه تَغوثُاً و هو في بحر من المـــاء
وليس يَعْلَم ما لاقيت من احدٍ إلا الذي حلَّ منّي في سويدائـــي
ذاك العليم بما لاقيت من دنفٍ و في مشيئِته موتي و إحيائـــــي
يا غاية السؤل و المأمول يا سكني يا عيش روحي يا ديني و دنيائي
قُلْ لي فَدَيْتُكَ يا سمعي و يا بصري لِمْ ذا اللجاجة في بُعدي و إقصائي
إن كنتَ بالغيب عن عينيَّ مُحْتَجِباً فالقلب يرعاك في الأبعاد و النائي

***

القصيدة الثانية: جواب في حقيقة الإيمان

للعلم أهلٌ و للإيمان ترتيـــــــب و للعلـــــــــوم و أهلِيها تجاريب
و العلم علمان منبوذ و مكتســـــب و البحر بحران مركوب و مرهوب
و الدهر يومان مذموم و ممتـــــدح و الناس اثنان ممنوح و مسلـــــوب
فاسَمعْ بقلبك ما يأتيك عن ثقـــــةٍ و انظرْ بفهمك فالتمييز موهـــــوب
إني ارتقيتُ إلى طودٍ بلا قـــــدمٍ له مَراقٍ على غيري مصاعيـــــب
و خُضْتُ بحراً و لم يرسب به قدمي خاضَتْهُ روحي و قلبي منه مرغــوب
حَصْبَاؤُه جوهرٌ لم تَدْنُ منـــه يـــدٌ لكـــــنه بِيَدِ الأفهـــام منهـــــوب
شربتُ من مائـــــه رَياً بغير فـــم و الماء قد كان بالأفواه مشـــــروب
لأن روحي قديماً فيه قدْ عطشـــتْ و الجسم [ما] ماسَهُ من قبل تركيـــب
إنـــي يتيمٌ و لي أبٌ أَلوُذ بـــــــه قلبـــــي لِغيْبَتِه ما عشـــْــتُ مكروب
أعمى بَصيرٌ و إنـــي أبْلَه فَطِـــنٌ و لـــــي كلام إذا ما شئتُ مقلـــوب
ذُو فَتَا عرفوا [ما] قد عرفت فَهْـمُ صَحْبِيَ ومن يُحْظ بالخيرات مصحوب
تعارفَتْ في قديم الذّر أَنْفُسهـــــم فأشرقَتْ شمسهم و الدهـــــر غربيـــب

***

القصيدة الثالثة: جواب إلى شبلي

يا موضع الناظر من ناظــري و يا مكان السرّ من خاطــري
يا جملة الكلّ التي كلهـــــــا أحبّ من بعضي و من سائري
تراك ترثي للذي قلبـــــــه مُعَلَق في مخلبي طائـــــــر
مدَلَهٌ حيرانُ مستوحـــــشٌ يهرب من قفر إلى آخـــــر
يسري و ما يدري و أسراره تسري كلمح البارق النائـــر
كسرعة الوهم لِمَنْ وهمه على دقيق الغامض الغابــر
في لجّ بحر الفكر تجري به لطائف من قدرة القـــــادر

***

القصيدة الرابعة: مراحل على الطريق

سكوتٌ ثم صمتٌ ثم خَرْسُ و عِلْمٌ ثم وَجْدٌ ثم رَمْـــــس
و طينٌ ثم نارٌ ثم نـــــورٌ و بردٌ ثم ظلّ ثم شمـــــــس
و حَزْنٌ ثم سهل ثم قفْـــر و نهر ثم بَحْرٌ ثم يَبْـــــــس
و سكر ثم صَحْوٌ ثم شوقٌ و قرب ثم وفر ثم أُنْـــــــس
و قبْضٌ ثم بسط ثم مَحْوٌ و فرق ثم جمع ثم طَمْـــــس
و أَخْذٌ ثم ردّ ثم جــذبٌ و وصف ثم كشف ثم لبـــس
عبارات لأقوامٍ تســاوتْ لديهم هذه الدنيا و فِلْـــــــس
و أصوات وراء الباب لكن عبارات الورى في القرب همس
وآخر ما يَؤول إليه عَبْـدٌ إذا بلغ المدَى حظّ و نفـــــس
لأنّ الخلق خدام الأمانـــي و حقّ الحقّ في التحقيق قُـدْس

***

القصيدة الخامسة: الأهوال أمانات عند أهلها

مَن ساررروه فأبدى كلّما ستـــروا و لم يراع انّصالاً كان غَشَّاشـــا
إذا النفوس أذاعت سرّ ما علمت فكل ما خلت من عقلها حاشـــا
من لم يصن سرّ مولاه و سيّـــده لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
و عاقبوه على ما كان من زلَـــل و أبدلوه مكان الأُنس ايحاشـــا
و جانبوه فلم يصلح لِقُرْبِهـــــم لمّا رأوه على الأسرار نبَّاشـــا
من أطلعوه على سرّ فنمَّ بـــــه فذاك مثل يبين الناس طيّاشـــا
هم أهل السرِّ و للأسرار قد خُلقوا لا يصبرون على ما كان فحَّاشا
لا يقبلون مذيعاً في مجالسهـــم و لا يحبّون سِتْراً كان وَشْواشا
لا يصطفون مضيفاً بعْض سرّهم حاشا جلالهم من ذلِكم حاشـــا
فَكُنْ لهم و بهم في كلّ نائبـــةٍ إليهم ما بقي الدهر هشَّاشـــا

***

القصيدة السادسة: ناي (في وصف فقد حاله)

أنْعَى إليك نفوساً طاح شاهدُها ... فيما وراء الحيثِ يَلْقَى شاهد القِدَم
أنْعي إليك قلوباً طالما هَطَلَتْ ... سحائبُ الوحي فيها أبْحُر الحكـــم
أنعي إليك لسان الحق مُذ زمن ... أودى و تذكاره في الوهم كالعـــدم
أنعي إليك بيانا تستكين له ... أقوال كل فصيحٍ مِفْوَل فهـــــــم
أنعي إليك أشارات العقول معاً ... لم يبق منهنّ إلا دارس الرمـــــم
أنعي و حُبّك أخلاقاً لِطائفةٍ ... كانت مطاياهم من مكمد الكظـــم
مَضَى الجميع فلا عين و لا أثــرُ ... مُضِيَّ عادٍ و فــُقــْدانَ الأُلى إرَم
و خَلّفوا معشراً يجرون لبستهم ... أعْمى من البهم بلْ أعمى من النعم

***

القصيدة السابعة

أشار لحظي بعين علِـــــم بخالصٍ من خِفّي وَهْم
و لائحٌ لاح في ضميـــري أدقّ من فهم وهم همّي
و خضتُ في لجّ بحر فكري أمُرُّ فيه كمرّ سهـــــــم
و طار قلبي بريش شوقـــي مركّب في جناح عزمي
إلى الذي عن سُئلتُ عنـــه رمزت رمزاً و لم اسمّي
حتّى إذا جُزْتُ كل حـــــدّ في فلوات الدنّو أهْمِـــي
نظرت إذ ذاك في سَجَـــالٍ فما تجاوزتُ حدّ رَسْمي
فجئتُ مستسلما إليـــــه حدّ قيادي بكفّ سلْمـــي
قد وسم الحبّ منه قلبي بميسم الشوق أي وســـم
و غاب عنّي شهود ذاتي بالقرب حتّى نسيتُ اسمي

***

القصيدة الثامنة

لم يبق بيني و بين الحقّ تِبْيَانـــي و لا دليل و لا آيات برهـــان
هذا تجلّى طلوع الحقّ ِ نائـــرةً قد أزْهَرَتْ في تلألُيها بسلطـــان
كان الدليل له منه إليه بـــــه مِن شاهدِ الحقّ ِبل عِلماً بِتِبْيـــان
كان الدليل له منه به و لـــــه حقـًّا وجدناه في تنزيل فـُرقان
لا يستدلُّ على الباري بصنعتـــه و أنْتُمُ حَدَثٌ يـُنْـبـِي بأزمـــان
هذا وجودي و تصريحي و معتقدي هذا تـَوَحـُّدُ توحيدي و إيماني
هذا عبارة أهل الانفراد بـــــه ذوي المعارف في سرّ و إعلان
هذا وجودُ وجودِ الواجدينَ لـــه بني التجانـُس ِأصحابي وخُلَّاني

***

القصيدة التاسعة

عجبتُ منك و منـــّـــي يا مُنــيْــَة المُتــَمَنّــِي
أدنيتــَني منك حتـــّـــى ظننتُ أنــّك أنـــّـــي
وغبتُ في الوجد حتـــّى أفنيتنـــَي بك عنـــّـــي
يا نعمتي في حياتـــــي و راحتي بعد دفنـــــي
ما لي بغيرك أنـــــسٌ من حيث خوفي وأمنـــي
يا من رياض معانيـــهْ قد حّويْـــت كل فنـــّـي
وإن تمنيْت شيْـــــــأ فأنت كل التمنـــّـــي

***

القصيدة العاشرة

أقتلُوني يا ثقاتـــــي إنّ في قتـْلي حياتـــــــي
و مماتـــي في حياتـــي و حياتي في مماتـــي
أنّ عنـــدي محْو ذاتـــي من أجّل المكرمـــات
و بقائـــي في صفاتـــي من قبيح السّيّئـــات
سَئِمَتْ نفســـي حياتـــي في الرسوم الباليـــات
فاقتلونـــي واحرقونـــي بعظامـــي الفانيـــات
ثم مـــرّوا برفاتـــــي في القبور الدارســـات
تجدوا ســـرّ حبيبـــــي في طوايا الباقيـــات
إننـــي شيـــخ كبيـــر في علوّ الدارجـــات
ثم إنـــّي صرتُ طفـــلا في حجور المرضعات
ساكنـــاً في لحد قبـــر في أراضٍ سبَخـــات
ولَدَتْ أمّـــــي أباهـــا أنَّ ذا من عجبـــاتـــي
فبناتـــــي بَعْـــدَ أنْ كـــ ـــن بناتـــي أخواتـــــي
ليس من فعل زمـــان لا و لا فعل الزنـــات
فاجمعوا الأجزاء جمعاً من جســـورٍ نيـــرات
من هـــواء ثم نـــار ثم من ماء فـــــرات
فازْرعوا الكلّ بأرضٍ تـــُرْبُها تـــرب مـــوات
وتعاهـــدها بســـــقي من كـــؤوس دائـــرات
من جـــوارٍ ساقيـــات و ســـواقٍ جاريـــات
فإذا أتممت سبعـــــا أنبتـــَتْ خير نبـــات

***

القصيدة الحادية عشر

يا طالما غِبْنا عن أشباح النظـــر بنقطةٍ تحْكِي ضياءُها القمـــرْ
من سمسم و شيرج و أحـــــرف و ياسمين في جبين قد سطر
تمشوا و نمشي و نرى أشخاصكم و أنتم لا ترونـــَّا يا دبـــــر

***

مقطعات

(1)

و أيّ أرض تخلو منك حتّى تعالوا يطلبونك في السمـــاء
تراهم ينظرون إليك جهـــراً وهم لا يبصرون من العماء

***

(2)

إلى كم أنت في بحر الخطايـــــا تبارز من يراك و لا تـــــــراه
وسمتـُك سمت ذي ورعٍ تـِقيٍ و فعْلك فعل متـّبع هـــــــواه
فيـــا من بات يخلو بالمعاصـــي وعين الله شـــــاهدة تـــــــراه
أتطمع أن تنـــــال العفو ممّـــــا عصمتَ و أنت لم تطلب رضاه
فـــَتـــُبْ قبل الممات وقبل يـــوم يلاقي العبد ما كســـبت يـــــداه
أتفرح بالذنـــوب والخطـــايـــــا و تنســـاه و لا أحد ســـــــواه

***

(3)

كانــت لقلبي أهواءٌ مفرّقـــــة فاستجمعَتْ مــُذْ راءَتــْك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت احسده وصرتُ مولى الورى مُذْ صرتَ مولائي
ما لامني فيك أحبابي و أعدائي إلّــا لغفلتهم عن عظــم بلوائـــــــي
تركتُ للناس دنياهم و دينهــم شغلاً بحبــّك يا ديني و دنيائـــــــي
أشعلتَ في كبدي نارين واحدة بين الضلوع و أخرى بين أحشائـــي

***

(4)

إذا دهمَتــْك خيول البعـــــاد ونادى الاياس بقطع الرجــا
فخُذْ في شمالك ترس الخضوع و شــُدّ اليمين بسيف البكــا
و نَــفْسَــك نَفْسَك كُنْ خائفــاً على حذر من كمين الجفــا
فإن جاء الهجر في ظلمـــــة فسِرْ في مشاعل نور لصفا
فقــُلْ للحبيب ترى ذلــّـــتي فجُدْ لي بعفوك قبل اللقـــا
فــوَ الحُبِّ لا تنثنِي راجعـــاً عن الحِبِّ إلّا بعَوْض ِالمنــا

***

(5)

سبحان من اظهر ناسوتــُهُ ســّر سنا لاهوتِه الثاقــب
ثم بــدا في خلقه ظاهــراً في صورة الآكل و الشارب
حتــّى لقد عَايــَنَهُ خَلْقــُه كلَحْظِة الحاجب بالحاجــب

***

(6)

كتبتُ ولم أكــُتبْ إليك و إنــّما كتبتُ على روحي بغير كتابِ
و ذلك أنّ الروح لا فرق بينها و بين مُحِبــّيها بفَصْلِ خطابِ
و كلّ كتابٍ صادر منك وارد إليك بلا ردّ الجواب جــواب

***

(7)

أُريدُك لا أريدك للثواب و لكنــّي أريــدك للعقــاب
فكلّ مآربي قد نِلْتُ منها سوى ملذوذِ وجدي بالعَذاب

***

(8)

كَفَى حَزَناً أنّي أُناديــك دائمــــــا كأنــّي بعيدٌ أو كأنــّك غائب
و أطْلُبُ منك الفضل من غير رغبةٍ فلم أر قبلي زاهدا فيك راغب

***

(9)

طَلَعَتْ شمس من أحبّ بليّلٍ فــ ــاستنارت فما عليها من غروب
عن شمس النهار تطلع باليلــ ــلِ وشمس القلوب ليس تغيــب

***

(10)

رأيتُ ربّي بعين قلبِ فقلتُ من أنت قال أنت
فليس للأين منك أينٌ و ليس أين بحيثُ أنت
و ليس للوهم منك وهمٌ فيعلم الوهم أين أنت
أنت الذي حُزْتَ كل أين بنحو لا أينَ فأينَ أنت
و في فنائي فنا فنائي و في فنائي وجدت أنت

***

(11)

لي حبيبٌ أزور في الخلــوات حاضر غائب عن اللحظات
ما تراني أصغي إليه بسمـــــعٍ كي أعي ما يقول من كلمات
كلمات من غير شكل ولا نطق و لا مثل نغمة الأصـــــوات
فكأنّـــي مخاطب كنت إيـــــّاه على خاطري بذاتي لذاتـــــي
حاضـــر غائب قريب بعيـــــدٌ وهو لم تحوه رسوم الصفات
هو أدل من الضمير إلى الوهم و أخفى من لائح الخطـــرات

***

(12)

سرّ السرائر مَطْـــــوِيٌّ بـــاِثـــْبَاتِ في جانب الأُفقِ من نور بـــطِيَّات
فكيف والكيف معروف بظاهـــــره فالغيب باطنه للذاتِ بالـــــــذات
تـــَاهَ الخلائقُ في عمياءَ مظلمـــــةٍ قصدا و لم يعرفوا غير الإشارات
بالظنّ و الوهم نحو الحقّ مطلبهـــم نحوَ الهواء يناجون السمـــــاوات
و الـــــربّ بينهم في كـــل منقـــلب مُحِلَّ حالاتهم في كل ساعـــــات
و ما خلوا منه طرف عين لو علموا و ما خلا منهم في كل أوقـــــات

***

(13)

فما لي بُعْدٌ بَعْدَ بُعْدِكَ بَعْدَمـــــــــــــا تـــَيَقـــَّنْتُ أنّ القرب والبُعد واحد
وإنّي وإن أهْجرتُ فـــَالهَجْرُ صاحبـــي وكيف يصحّ الهجر والحُبّ واجد
لك الحمد في التوفيق في محض ِخالصٍ لعبدٍ زكـــّيٍ ما لغيرك ساجـــــد

***

(14)

لا تـــلَمنّي فاللوم منـــّي بعيـــد وأجِرْ سيـــّدي فإنـــّي وحيد
إنّ في الوعد وَعْدك الحقّ حقاً إنّ في البدء بدء أمري شديد
مَن أراد الكتاب هذا خطابـــي فاقرؤُا وأعلموا بأنّي شهيـــد

***

(15) و (16)

قد تصبّرتُ و هل يصـــ ـــبرُ قلبي عـــــن فؤادي
مازجَتْ روحُك روحي في دنـــوٍّ وبعـــــادي
فأنا أنت كمـــــا أنـــّ ـــك أنـــّـــي و مـــــــرادي

أنتم ملكتم فؤادي فهمْت في كلّ وادي
ودقّ على فؤادي فقد عدمت رقادي
أنا غريبا وحيدا بكم يطول إنفرادي

***

(17)

حقيقة الحقّ مُسْتـــنِـــيَر صارخه بالنبا خبيـــــر
حقيقة الحقّ قِد تجلـــَّتْ مَطْلب من رامها عسير

***

(18)

أنت المُوَلـــِّهُ لي لا الذكر ولَّهنـــي حاشا لقلبي أنْ يَعْلق به ذِكَـــرى
الذكر واسطةٌ تـــُخْفِيك عن نظري إذا توشـــَّحَهُ من خاطري فكري

***

(19)

مواجِيدُ حَقّ ٍأَوْجَدَ الحـــــــقُّ كـــُلَّها و إِنْ عجزَتْ عنْها فهوم الاكابر
وما الوجد إلا خطرة ثم نظـــــــرة تـــُنَشـــّي لهيبا بين تلك السرائر
إذا سكن الحقُّ السريرةَ ضُوعفــتْ ثلاثة أحوال لأهل البصائـــــــر
فحالٌ تـــُبيدُ السرَّ عن كنْه ِوجِـــــدِه وتـــُحْضِرُهُ بالوجد في حال حائر
و حالٌ به زُمَّتْ قوى السرّ فآنـــْثَنَتْ إلى مُنـــْظِرِ أفناه عن كلّ ناظر

***

(20)

الاحتمال الأول

إذا بلغ الصبُّ الكمال من الفَتَى ويذهل عن وصل الحبيب من السُّكر
فيشهد صدْقاً حيث أشهده الهوى بأنّ صلاة العاشقين من الكفـــــــر

الاحتمال الثاني

إذا بلغ الصبُّ الكمال من الهوى وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
فشاهد حقـــّاً حين يشهده الهوى بأنّ صلاة العارفين من الكفـــــــر

***

(21)

عَقـــُدْ النبوّة مِصْباح من النـــــور مُعَلَّقُ الوَحي في مشكاة تأمـــــور
بالله يُنْـــفَخُ نَفْـــخ الروح في جَلَدِي بخاطري نَفْخَ اسرافيلَ في الصور
إذا تجلّى لطـــــوري أن يُكـــلّمني رَأَيْتُ في غيبتي موسى على الطور

***

(22)

لأنوار نور الدين في الخلق أنوارُ و للسرّ في سرّ المسرّين أسرار

وللكون في الأكوان كون مُكَــوّنٍ يكنُّ له قلبي و يهدي و يختــار
تأمّلْ بعين العقل ما أنا واصــف فللعقل ِأسماع وُعَاة و أبصــار

***

(23)

سكنتَ قلبي و فيه منك أســـــرار فليَهْنِك الدار بلْ فليهنك الجــارُ
ما فيه غيرك من سرّ عَلِمْتُ بـــــه فأنْظُرْ بعينك هل في الدار ديّار
و ليلة الهجر ِإنْ طالتْ و إن قصُرَتْ فمؤنسي أملٌ فيه وتذكـــــار
إنّي لراض ٍبما يرضيك من تلفـــي يا قاتلي و لِمَا تختار اختـــار

***

(24)

الحبّ ما دام مكتوماً على خطـــرٍ وغاية الأمْنِ أن تدنو من الحـــذر
و أطيب الحبّ ما نمّ الحديث بـــه كالنار لا تأتِ نفعاً و هي في الحجــر
من بعْدِ ما حضر السحاب و اجتمعا الأعوانُ و امتطّ أسمى صاحب الخبر
أرجُو لنفسي براء من محبّتكـــم إذا تبرّأت من سَمعي ومن بصـــري

***

(25)

غِبْتَ و ما غبتَ عن ضميري و صرْتَ فرحتي و سروري
وانفصل الفصل بافتـــراق فصار في غيبتي حضوري
فأنت في سرّ غيبِ همّـــي أخفى من الوهم في ضميري
تؤنسني بالنهار حقـــاً وأنت عند الدجى سميري

***

(26)

يا شمس يا بدر يا نهار أنت لنا جنــّة و نـــار
تَجنُّبُ الإثمِ فيك ثم إثمٌ وخاصّية العار فيك عار
يخلعُ فيك العذار قــومٌ وكيف من لا له عــذار

***

(27)

أحرف أربع بها هام قلبي و تلاشت بها همومي و فكري
ألِفٌ تألف الخلائق بالصنـــْـــ ـــعِ ولامٌ على الملامة تجـــري
ثمّ لامٌ زيادة في المعانـــي ثمَّ هاءٌ أهيمُ بهـــا أتـــــدري

***

(28) و (29)
لماذا رفض الشيطان السجود لآدم

الاحتمال الأول

جحودي فيك تقديس و عقلي فيك تهويـــس
و مـــــــا آدم إلاك و من في البين إبليس

الاحتمال الثاني

جُنُوني لك تقديـــس و ظنّي فيك تهويـــس
و قد حيّرني حِـــبٌّ وطرْفٌ فيه تقويـــــس
و قد دلّ دليل الحُبّ أن القرب تَـــلْبيـــــس
فـــمـــــن آدم إلاك ومن في البين إبليـــس

***

(30)

حويتُ بكـــلّي كلّ حُبّك يا قـــدُسي تكاشفني حتـــّى كأنـــّك في نفســـي
أقلّب قلبي في سواك فـــــلا أرى سوى وحشتي منه و منك به أنْســـي
فها أنا في حَبس الحياة مجمَّـــــع من الأنس فاقبضْني إليك من الحبْس

***

(31)

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت إلا و حبّـــك مقـــرون بأنفاســـي
ولا خلوتُ إلى قوم أحدّثهـــــم إلا و أنت حديثي بين جلاســـــي
ولا ذكرتك محزوناً و لا فَرِحا إلا و أنت بقلبي بين وسواســـــي
ولا هممت بشرب الماء من عطش إلا رَأَيْتُ خيالاً منك في الكـــــأس
ولو قدرتُ على الإتيان جئتـــُكم سعياً على الوجه أو مشياً على الرأس

ويا فتى الحيّ إن غنّيت لي طربا فغنّـــني وأسفا من قلبك القاســـــــي
ما لي وللناس كم يلحونني سفها ديني لنفسي ودين الناس للنـــــــاس

***

(32)

يا نسيم الروح قولي للرشـــا لم يزدني الــوِرْد إلا عطشـــا
لي حبيبٌ حبّه وسط الحشـــا إن يشا يمشي على خدّي مشا
روحه روحي وروحي روحه إن يشا شئتُ وإن شئتُ يشـــا

***

(33)

عجبتُ لكلّي كيف يحمله بعضـــــــي ومن ثقل بعضي ليس تحملني أرضـــــي
لئن كان في بسط من الأرض مَضْجَعٌ فبعضي على بسط من الأرض في قبضي

***

(34)

ما زلتُ أطفو في بحار الهوى يــرفــعــني المَــوْجُ و انحطُّ
فتارةً يــرفعــني مَــوْجُــهــا وتــارة أهـــوى وانــغـــطّ
حتّى إذا صيَّرني في الــهوى إلى مــكــان مــا لــه شـــطّ
ناديتُ يا من لم أَبُــح باسمــه ولم أخُــنْــهُ في الهـــوى قطّ
تقيك نفسي السُّــوء من حاكم ما كان هذا بيننـــا شـــرط

***

(35)

مكانُك من قلبي هو القلب كــلّـــه فليس لخلقٍ في مكانك موضـــــع
وحَطَّتْك روحي بين جلدي وأعظامي فكيف تراني إن فقدتك اصنـــــع

***

(36)

إذا ذكرتك كاد الشوق يقلقني وغفلتي عنك أحزانٌ وأوجاع
وصار كلّي قلوباً فيك داعية للسقم فيها وللآلام إســـــراع

***

(37)

نديمي غير منســـوبٍ إلى شيءٍ من الحيـــف
سقاني مثلما يشـــرب كفعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكـــــأس دعا بالنطع و السيـــف
كذا من يشرب الراح مع التِـــّنين في الصيف

***

(38)

صَيَّرني الحقّ بالحقيقـــة بالعهد والعقد والوثيقـــة
شَاهَدَ سرّي بلا ضميري هذاك سرّي وذا الطريقة

***

(39)

وَحِّدْنِي واحدي بتوحيد صِدْقٍ مـــا إلـــيه من المســـالك طُرقُ
أنا الحقُّ و الحقُّ للحقّ حـــقٌّ لأبـــسٌ ذاتَـــهُ فما ثـــمّ فَـــــرْقُ
قد تَجَلّتْ طوالعٌ زاهـــــراتٌ يتـــشعشعْنَ في لـــوامـــع بَـــرْقِ

***

(40)

ركوبُ الحقيقة للحقّ حـــقٌّ ومعنى العبارة فيه تدقّ
رَكِبْتُ الوجودَ بعين الوجودِ وقلبي على قسوةٍ لا يَرِقّ

***

(41)

جبلتْ روحك في روحي كما تجبل العنبر بالمسك الفتقْ
فإذا مسَّــك شيءٌ مسَّـنـــــي فإذاً أنت أنا لا نفتـــــرقْ

***

(42)

دَخَلْتَ بناسوتي لديك على الخلق ولولاك لاهوتِي خَرجْتُ من الصِدْق
فإنّ لسان العلم للنطق و الهدى وإنّ لسان الغيب جلّ عن النطـــــق
ظهرتَ لقومٍ والتبستَ لفتيـــــةٍ فتاهوا وضلّوا واحتجبتَ عن الخلــق
فتظهر للألباب في الغرب تارةً وطورا على الألباب تغرب في الشرق

***

(43)

فيك معنى يدعو النفوسَ إليك ودليل يدلّ منك عليْــك
لِـــيَ قلـــبٌ له إليك عيــونٌ ناظراتٌ وكلُّهُ في يدَيْك

***

(44)

هّمي بـــه ولّـــه عــليــك يا من إشارتنا إليك
روحان ضمهما الهَوَى في مِدْحَتِك وفي لديــك

***

(45)

دُنْيَا تُخَادِعُنِي كأنّـــي لستُ أعرف حالهـــا
ذمّ الِإلـــهُ حرامهـــــا وأنا اجتنبت حلالهـــا
مدَّتْ إلـــيَّ يمينهـــــا فرددْتها وشمالهـــــا
ورايتـــُها محتاجـــــة فوهبتُ جملتها لهـــا
ومتى عرفت وصالها حتـــّى أخاف ملالها

***

(46)

عليــك يا نفــس بالتسلّـــــي العــزّ بالزهد و التخلّــي
عليــك بالطلّـــــعة التـــــي مشكاتها الكشف و التجلّي
قد قام بعضي ببعض بعضي و هام كلــي بكــلّ كلــي

***

(47)

مُزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فــإذا مسَّــك شيء مسّنـــــي فإذا أنت أنا في كلّ حــال

***

(48)

نِعْمَ الإعَانَةُ رَمْزٌ في خفا لُطُــفٍ في بارقٍ لاحَ فيها من حُلى خِــلــلِــهْ
والحال يرمقني طوراً وأرْمُــقــُهُ إن شا يغشى على الإخوان من قــُلــلِــهْ
حال إليه رأى به فيه بــِهــِمّتــه عن فيض بحرٍ من التمويه من مِــلــلِــهْ
فالكــلّ يشهده كــُلّاً وأشهـــده مع الحقيقة لا بالشخص من طــلــلــهْ

***

(49)

ثلاثة أحرف لا عُجْــمَ فيهــا ومعجومانِ وانقطع الكــلام
فمعجــومٌ يشاكــل واجديــهِ ومتروكٌ يُصَــدّقــُهُ الأنــام

وباقي الحَرْف ِمرموزٌ مُعَمَّى فلا سفر ينـــال و لا مقـــام

***

(50)

تفكّرتُ في الأديان جدَّ تحقّق ٍ فألفيتها اصلاً له شُعَباً جمّا
فلا تــَطْلُبَنْ للمرء ديناً فإنّه يُصَدُّ عن الأصل الوثيق وإنّما
يطالبه اصلٌ يعبِّر عنده جميعُ المعالي والمعاني فــَيَفْهَمَــا

***

(51)

يا لائمي في هواه كم تلوم فــَلَوْ عرَفْتَ منـــه الـــذي عنيت لـــم تــَلُم ِ
للناس حجّ ولي حجّ إلى ســـكني تُهْدَى الأضاحي وأُهْدِي مُهْجَتِي وَدَمِي
تطوف بالبيت قومٌ لا بجـــارحة ٍ باللهِ طافوا فأغنـــاهم عـــن الحَـــــرَم ِ

***

(52)

بدا لك ســرٌّ طال عنـــك اكتتامه ولاح صباحٌ كنت أنت ظلامه
وأنت حجاب القلب عن سرّ غيبه ولولاك لم يطبع عليه خاتمـــه

***

(53)

هيكليّ الجسم نوريّ الصميم صمديّ الروح ديّـــان عليـــم
عـــاد بالـــروح إلى أربابها فبقي الهيكل في الترب رميم

(54)

قلبك شيء وفيه منك أسماء لا النور يدري به كلّا ولا الظلـــم
ونور وجهك سرّ حين أشهده هذا هو الجود والإحسان والكرم
فخُذْ حديثي حِبّي أنت تعلمه لا اللـــوح يعلمه حقاً ولا القلـــم

***

(55)

آهٍ أنا أم أنْتَ؟ هَـذَيْـن ِإلهَيْـــن ِ حاشاي حاشاي مِن إثبـــات أثـــنَـــيْـــن ِ
هـــــويةٌ لـــك في لايئتي ابَـــــداً كـــلّي على الكلّ تلبيسٌ بـــوَجْـــهَـــيْـــن ِ
فـــأيْنَ ذاتك عنّي حيث كنت أرى فـــقد تـــبَيـــنّ ذاتـــي حيت لا أيـــــن
وأيْنَ وَجْهُـــك مقصود بناظرتّـــي في ناظـــر القلب أم في ناظـــر العيـــن
بَيْنِـــي وبَيْنـــك أنّيٌ يُزاحِمُنِـــــي فارفعْ بـــأنـــّك أنّـــي مِـــن الـــبـــيـــن

***

(56)

ألا أبْـــلـــغْ أحبّـــائي بأنّـــــي ركبتُ البحر وانكَسرَ السفينةْ
على دين الصليب يكون موتي و لا البطحا أريد ولا المدينة

***

(57)

أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا نحن روحان ِحَلّلْـــنا بدنا
فـــإذا أبصرتـــَني أبصرتـــَهُ و إذا أبصرتـــَهُ أبصرتـــَنـــا

***

(58)

يا غـــافلاً لجهالـــةٍ عن شأني هلّا عرفتَ حقيقتـي وبيانـي
أعِبـــادة لِلّهِ ستـــّة أحـــــرفٍ مِـــن بينها حرفـــان معجومـــــان
حرفان اصليّ وآخُـــر شَكْلُـــه في العجـــم منسوب إلى إيـــماني

فإذا بدا رأس الحروف أمامها حرفٌ يقــوم مقــام حرف ثــان
أبصرتَني بمكان موسى قائما في النور فوق الطور حين تراني

***

(59)

خاطَبني الحقّ من جناني فكان علمي عــلى لساني
قربّني منه بَعْــدَ بُعْــــدٍ وخصَّني الله و اصطفاني

***

(60)

كــذا اجتباني وأدناني وشرّفنـــــي والكــلّ بالكــلّ أوصاني وعرّفني
لم يبق في القلب والأحشاءِ جارحةٌ إلّا وأعْــرفه فــيــهــا ويعرفنـــي

***

(61)

أنْتَ بين الشغاف والقلب تجري مثل جري الدموع من أجفاني
وتُحِلُّ الضميرَ جوفَ فـــؤادي كحلول الأرواح فــي الأبدان
ليس من ســـاكنٍ تَحَرَّكَ إلّا أنت حَرَّكْتَهُ خَفَّي المكـــان
يا هــلالاً بدا لأربع عشــرٍ لثمــانٍ وأربــعٍ و اثنـــان

***

(62)

حَمَّلْتَ بالقلب ما لا يحمل البَدَنُ والقلب يحمل ما لا تحمل البُــدُن
يا ليتني كنتُ أدنى من يلوذ بكم عينــاً لانظركــم أم ليتنـــي أذن

***

(63)

بيَان بيان الحــقّ أنت بيانــه وكــل بيــانٍ أنت منــه لسانــهُ
أشرتُ إلى حقّ بحقٍ وكل من أشــار إلى حقّ فأنْــتَ أمــانــهُ
تشير بحقّ الحقّ والحق ناطقٌ وكــل لســانٍ قــد أتــاك أوانــهُ

إذا كان نعْت الحقّ للحقّ بَيّنــاً فما بالُهُ في الناس يَخْفَــي مكانــه

***

(64)

رقــيــبَــان مِنّي شاهدَان لِحُبّـــهِ واثنــان مِنّــي شــاهــدَان تِــرانــي
فما جــال في سرّي لغيرك خاطــر ولا قــال إلا فــي هــواك لســانــي
فإنْ رُمْتُ شرقاً أنت في الشرق شرقهُ وإن رمــتُ غرباً أنت نصب عيانــي
وإن رمتُ فوقاً أنت في الفوق فوقه وإن رمــتُ تحتا أنــت كــل مكــان
وأنــت محــلّ الكــلّ بــل لا محلّهُ وأنــت بكــلّ الكــلّ ليــس بــفــانٍ
فقلبي وروحي والضمير وخاطري وتــرداد أنفــاسي وعقــد جنــانــي

***

(65)

أرجعْ إلى الله إنّ الغــاية الله فــلا إلــهَ إذا بالغْتَ إلّا هـــو
وإنّه لمَــعَ الخَلْق الذين لهــم في الميم والعين والتقديس معناه
معناه في شفَتي من حلّ معتقداً عن التهجّي إلى خلقٍ له فاهــوا
فإنْ تشكّ فدِبّرْ قول صاحبكم حتّى يقول بــنَفْيِ الشكّ هذا هو
فالميــم يفتح أعلاه وأسفلــه والعيــن بفتــح أقصــاه وأدناه

***

(66)

من رامه بالعقل مسترشدا أسرحَهُ في حيرة تلهــو
قد شاب بالتلبيس أسرارهُ يقول في حيرته هَلْ هو

***

(67)

لستُ بالتوحيدِ ألهــو غير أنّي عنه أسْهــو

كيف أسهو كيف ألهو وصحيح أنّــني هــو

***

(68)

يا ســـرّ ســـرّي تذقّ حتّى تُخفي على وهم كل حّيِ
وظـــاهـــرا باطناً تجـــلّى في كلّ شيء لكل شـــيء
لئن اعتذاري إليك جهـــلٌ وعُظْم شكّي وفرط عيّ ِ
يا جملةَ الكلّ لسْتَ غيري فما اعتذاري إذاً إلـــــيّ ِ

***

(69)

اسمٌ مع الخلق قد تاهوا به ولَهاً ليعلموا منه معنىً من معانيه
والله لا يصلوا منه إلى سبـــبٍ حتّى يكون الذي أبداه يبديـــه

***

يتامى

(1)

مثالُك في عيني وذكْرك في فمي ومَثْــوْاك في قلبي فأين تغيب

***

(2)

كفرت بدين الله والكفر واجب لديَّ وعـــنـــد المسلمين قبـــح

***

(3)

فقـــلْتُ اخلَّائي هي الشمسُ نورها قريبٌ ولكنْ في تناولها بُـــعْـــدٌ

***

(4)

قد كنتُ في نعمة الهوى بطراً فأدركَتْني عقـــوبة البطـــر

***

(5)

شرطُ المعارف محو الكلّ منك إذا بدا المريدُ بلحظٍ غير مطـــّلع

***

(6)

ذِكْرُهُ ذكري وذكري ذِكْرُهُ هل يكونـــَا الذاكران ِإلّا معَا

***

(7)

لا تُعِرّضْ بهذا فهذا بنانٌ قد خضبناه بدم العشّاق

***

القسم الثاني

آ – قصائد مستعارة من شعراء سابقين

1 – لعبد الصمد بن المضحل البصري

يا بديع الــدلّ و الغنج لك سلطانٌ على المهج
إن بيتــاً أنت ســاكنه غير محتاج إلى السُّرُج
وجهك المأمول حجّتنا يوم يأتي الناس بالحج

***

2 – لحسين بن الضحاك الخالي

تجاسرتُ فكاشفتــك لما غلب الصبر
وما أحسن في مثلك ما ينتهك الستــر
لئن عنــفَّني الناس ففي وجهك لي عذر
كانّ البدر محتــاج إلى وجهك يا بــدر

***

3 – لشعراء مجهولين

آ

دلالٌ يا حبيبي مستعــــارْ دلال بعد أن شاب العــذار
ملكتَ وحرمة الخلوات قلباً لعبتَ به وقــرّ به القــرار
فلا عيــن يؤَرّقها اشتيــاقٌ ولا قلب يقــلقه اِدِّكــــار
نزلتَ بمنزل الأعداء منّــي و تبتُ فما نزور ولا تــزار
كما ذهب الحمار بأُم عمروٍ فما رجعَتْ ولا رجع الحمار

ب

وبدا له من بعدما اندمل الهوى برقٌ تــألّــق موهناً لمعَــانُه
يبدو كحاشية الرداء ودونه صعب الذرى ممتنعا أركانه
فأتى لينظر كيف لاح فلم يطق نظرا إليه وصده أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه

3

وطائرٍ حَلَّ أرضَ الشام افــرده فَــقــدْ الأليف لــه نطق بإضمار
بالفهِ كان قصراً صــار مسكنه في غيضَةِ الأيكِ في أغصان أشجار
فضلّ يندب حتّى الصبح مُسْعِدَه يبغي الغريبَ ويُهوِى كــل صبّــار
في نطقه رقة تسليك عن حُرَقٍ فَيُسْليك نَــوْحُهُ نطقــا بإضمــــار

***

4 – لأبو العتاهية

آ

النفس للشيء الممنّع مُولَعة والحادثات أصـــولهـــا متفرّعة
والنفس للشيء البعيد مُريدة والنفس للشيء القريب مُضيّعة
كل يحاول حيلةً يرجو بها دفع المضرّة واجتلاب المنفعة

ب

وما وجدتُ لقلبي راحةً ابـــــدا وكيــف ذاك وقد هيبتُ للكـــــدر
لقد ركبت على التغرير واعَجَبَـــا ممّن يريد النجا في المسلك الخطر
كـــأنّـــنـــي بين أمواج تقلّبُنـــــي مقلّب بين إصعادٍ و منحـــــــــدر
الحُزْن في مهجتي والنار في كبدي والدمع يشهد لي فاستشهدوا بصري

ج

الكأس سهّل الشكوى بمُثْنَابكم وما على الكأس من شرّابها درك
هبْني ادّعيتُ بأنّي مدنفٌ سَقِمٌ فما لمضْجع جنبي كـــلّه حســـك
هجرٌ يسوء ووصلٌ لا أسرُّ به مالي يدور بمـــا لا أشتهي الفلك
فكلما زاد دمعي زادني قلقـــاً كـــأنـــّـــني شمعة تبكي فتنسبك

د

طلبتُ المستقرَّ بكـــل أرض فلم أرَ لي بأرضٍ مستقرًّا
أطعتُ مطامعي فاستعبدَتْني ولو أنّي قنعتُ لكنتُ حرًّا

[فنِلْتُ من الزمان ونال منّي وكان منالـه حلْواً ومُرًّا]

تعوَّضْتُ مسّ الضرّ حتّى ألفتُه وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر

***

5 - لسهل التستري

قلـــوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون
وألسنة بأســـرار تنـــاجـــي تغيب عن الكرام الكاتبين
وأجنحة تطير بغير ريـــشٍ إلى ملكوت ربّ العالمين
فأورثنا الشراب علوم غيبٍ تشفّ على علوم الأقدمين
شواهـــدها عليها ناطقـــات تبطل كل دعوى المدعين

***

6 - لجنيد البغدادي

آ

الوجد يُطرب من في الوجد والوجد عند وجود الحقّ مفقـــود راحته
قد كان يوحشني وجدي و يؤنسني بروية الوجد من في الوجد موجود

ب

ما لي جَفِيْتَ وكنتُ لا أُخفي ودلائل الهجران لا تُخْفَـى
و أراك تخلطني وتشـربني ولقدْ عهدتك شاربي صرفا

ج

قد تَحَقَّقْتُ في سرّي فتناجاك لسانـي
فاجتمعنا بمعـانٍ وافترقنا لمعـان
فلئن غيَّبك العـزّة عن لحظ العيـان
فلقد صيّرك الوجدُ من الأحشاء دانٍ

***

7 – لأبو الحسن النوري

كـادت سرائر سرّي أن تسرّ بما أوليتني مـن جميـل لا اسميـه
وصـاح بالسرّ سرٌّ منك يـرقيه كيـف السرور يسـر دون مبديـه
فظـل يلحظني سرّي لألحظـه والحـقّ يلحظني أن لا أخـليـه
وأقبل الوجد يفني الكل من صفتي وأقبـل الحـقّ يخفيني وأبـديـه

***

8 – لسمنون

آ

متى سهرَتْ عيني لغيرك أو بكـتْ فلا أعطيت ما مُنِّـيَـتْ وَتـمَـنَّـتِ
وإن أُضْمَرَتْ يوماً سواك فلا رَعَتْ رياض المُنَى من وجْنَـتَـيْـك وجَنَّتِ

ب

لئن أمسيتُ في ثوبي عديـم لقد بليا على حرّ كريـم
فلا يحزنك إن أبصرتَ حالاً مغيّرة عن الحال القديـم

فلي نفسٌ ستتلف أو سترقـــى لعَمْرُ أبي إلى أمر جسيم

ج

أرسلتَ تسأل عنّي كيف كنتُ ومـــا لقيتُ بعدك مـــن هـــمّ ومـــن حزن
لا كنتُ إن كنتُ أدري كيف كنتُ و لا "لا كنتُ" إن كنت أدري كيف لم أكن

***

ب – قصائد مستعارة من شعراء لاحقين

1 – لأبي فراس الحمداني

وليتكَ تحلـــو والحيـــاة مريرةٌ وليتـــكَ ترضى فالأنام غضاب
وليتَ الذي بيني وبينك عامـــر وبيني وبين العالمَين خـــــراب
وليتَ شرابي من ودادك صافيا وشربي من ماء المعين سراب
إذا صحّ منك الودّ فالكلّ هين وكل الذي فوق التراب تـــراب

***

2 – لأبو نصر السرّاج

لا تَسْأمــنَّ مقالتــي يــا صاح وأقبل هدية ناصــح نصَّاح
ليس التصــوّف حيــلةً وتكلّفــاً وتقشّفاً وتواجداً وصيـــاح
ليس التصوّف كِـــذبةً وتظالماً وجهــالةً ودعــابة ومِــزاح
بــلْ عفَّة ومُـــرُوءَةً وفتــوَّةً وقنــاعة وطهــارة وصلاح
وَقْفــاً وعِلمــا واقتدا وصفــا ورضا وصِدءقاً ووفا وسماح
متيقــّناً متصبّـــراً متشمّــراً مستمطــرا مستقصّــدا سيّاح
متعــزّزا متحــرّزا متواضعــا متبــدّل الأشبــاح و الأرواح
تاء التقى صاد الصفا واء الوفاء فــاء الفتوّة فاغتنمْ يــا صاح
مــن قــام فيه بحقّــه و حقوقه وخــلا عن الحدثان والأشباح
تتشعشع الأنــوار من أســراره كتشعشع المشكاة في المصباح

3 – لشاعر مجهول

أنت أنا بلا شـــكّ فسُبْحانك سُبْحَانــي
فتوحيدك توحيــدي وعصيانك عصياني
واسخاطك اسخاطي وغفرانك غفرانــي
ولِمْ أُجْلد يا ربّـــي إذا قيل هو الزانــي

***

4 – لعين القضاة الحمداني

ألقاهُ في البحر مشدوداً وقال له إيَّاك إيَّاك أن تــَبــتــلَّ بالماء

***

5 – مدرسة ابن عربي

عَقَدَ الخلائقُ في الإله عقائداً وأنا اعتقدتُ جميع ما عقدوه

***

ج - في لسان حال الحلاّج

1 – في الحبّ الإلهي والتوق إلى العذاب

1 - القزويني

حَنينُ المُريد بشوق مزيــد أنين المريض لفقد طبيــب
قد اشتدّ حال المريدين فيه لفقد الوصال و بُعْد الحبيب

***

2

الصـــبَّ إرْثِي مُحِبٌّ نواله منك عُجْـــبُ
عـــذابه فيـــك عَذبٌ وبُعده فيك قـــــرب
وأنت عندي كروحي بل أنت عندي أحبّ
فـــأنـــت للعين عين وأنـــت للقلب قلب
حتّى من الحبّ أنّي بمـــا يحبّ محـــبّ

***

3

لقد أعجبني الوجد بمن أهواهُ والفقـــدُ
فلا بعد ولا قرب ولا وصل ولا صدّ
ولا فوق ولا تحت ولا قبـــل ولا بعـــد
ولا عُرف ولا نكر ولا يـــأس ولا وعد
فهذا منتهى سولي وهـــو الواحد الفرد

***

4

العيـــن تبصر من تهـــواه وتفقده ونـــاظر القلب لا يخلو مـــن النظر
إن كان ليس معي فالذكر منه معي يراه قلبي وإن قد غاب عن بصري

***

5

أجريتُ فيك دموعي فالـــدمع منك عليـــك
و أنت غاية ســـؤلي و الطرف وسنَى عليك
فإن فُنِي فيك بعضي حُفظـــتُ منـــك لديك

***

6

إذا هجرتَ فمـــن لـــي ومـــن يجمّل كـــلّي
ومـــن لروحي وراحي يا أكثـــري وأقـــلّي
أحَبَّـــكَ البعض مـــنـــّي فقد ذهبت بكـــــــلّي
يا كـــلّ كـــلّي فكـــنْ لي إنْ لم تكن لي فمن لي
يا كـــل كـــلّي و أهـــلي عنـــد انقطاعي وذلّي
ما لي سوى الروح خذها والـــروح جهد المقلّ ِ

***

7

كل حبّ عــلى قلبٍ غير حبّك حرام
أنت لي رَوْحٌ وراح وزهر ومــدام
وســرور و همــوم وشفاء وسقــام
فعلــىَ كلّ هوى بْعدَ هوى فيك سلام

***

8

رماني بالصدود كمــا تراني وألْبَسَنِي الغرام وقد براني
ووقتي كــلّه حلــوٌ لــذيــذ إذا ما كان مولائي يــراني
رضيتُ بصنعه في كل حال ولستُ بكاره ما قد رمــاني
فيا من ليس يشهد مــا أراه لقد غيبت عن عين ترانــي

***

9

وقصَّرْتُ عقلي بالهوية طاليا فعــاد ضعيفاً في المطالب هاريا
وكُنْتَ لربّ العالمين نصرةً فلا تَسْتَعْجِلْ أنْتَ في التطلّب جاريا
تحقَّقْ بأن الحقّ ليس بِمُدركٍ فمن يُدْعِيُهُ جاهلا ومــرائيــا
ولكنّه يبــدو مراراً فيختفي فيعرفه مــن كــان بالعلــم خاليا

***

10 - الحمداني

الله يعلمُ مــا فــي النفس جارحةٌ إلّا وذكــرك فيهــا نَيْــلُ ما فيهــا
ومــا تنفّستُ إلّا كنتَ مــع نَفَسِي تجري بك الروح منّي في مجاريها
إن كانت العين مُذ فارقْتَها نظرتْ إلــى ســواك فخانتهــا مــآقيهــا
أو كــانت النفس بعد البُعْد آلفة خــلقاً عــداك مــا نالت أمانيهــا

***

2 – في السكر الروحاني والعذاب

11

لم أسْلِم النفْسَ للأسقام تـــُتْلِفُها إلّا لعلمي بأنّ الموت يُحييهـــا
ونظرةٌ منك يا سؤلي ويا أملي أشهى إلي من الدنيا وما فيها
نفْسُ المحبّ على الآلام صابرة لعـــلَّ مُسْقمها يوماً يداويهـــا

***

12

نظري بَـــدْء علّتي وَيْحَ قلبي وما جنا
يا معين الضنا علّى أَعِنِّي على الضنا

***

13

وحُرمة الودّ الذي لـــم يكنْ يطمع في إفساده الدَهْرُ
مـــا نالني عند هجوم البـــلا بؤسٌ ولا مسّني الضرّ
ما قُدَّ لي عَضْوٌ ولا مفصل إلّا وفيه لـــكـــم ذِكْـــر

***

14

سَقَوْني وقالوا لا تُغَنّ ولو سقوا جبال حُنين ما سقيتُ لغنّـــتِ
تمنَّتْ سُلَيْمَى أن أموت بحبّهـــا وأسهل شيء عندنا ما تمنّت

***

15

سكرْتَ من المعنى الذي هو طيب ولـــكنَّ سُكري بالمحبّة أعْجَب
و مـــا كـــلّ سكران يُحَدّ بواجبٍ فـــفي الحبّ سكران ولا يتأدّب
تقوم السكارى عن ثمانين جلدة صحاةً وسكران المحبّة يُصْلَب

***

16

كلّ بلاء علّي منّي فليتَني قد أخذتُ عنّي

***

17

لاحتْ على دكّة الخمّار أســـرار وأشرقت في وجـــوه القوم أنوار
وطاف بالبيت ساقٍ لا شبيه لـــه هـــذا العقيق وهـــذا الربع والدار
فاستيقظوا يا سكارى بعد رقدتكم واستغنموا الوقت إن الدهر غدّار
مـــن باح بالسرّ كان القتل شيمته بين الرجال ولم يُؤخذ لـــه ثـــار

***

18

والله لـــو حلـــف العشّـــاق أنّهـــم موتى من الحبّ أو قتلى لما حنثوا
قومٌ إذا أهجروا من بعد ما وصلوا ماتـــوا وإن عاد وصْل بعدهُ بُعثوا
ترى المحبّين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كـــم لبثوا

***

19

مواجيد أهل الحق تصدق عن وجدي وأسرار أهل السر مكشوفة عندي

***

20

لِيَكُنْ صدرُك للأسرار حِصْناً لا يُـــرام
إنّمـــا ينطـــقُ بالســـرّ و يُفْشيـــه اللئامُ

***

21

وما شرب العشّاق إلّا بَقيّتي وما وردوا في الحبّ إلّا على ورْدي

***

د – قصائد مكرّسة لموت الحلاّج

1 – لأبو الحسن علي مسفر السبتي: قصيدة حول الشهادة

قــُلْ لأخــوان رآوني ميّتــاً فبكوني إذ رآوني حَزَنَــا
أتظنــّون بأنّــي مــيْــتــكم لستُ ذاك الميت والله أنا

أنـــا كنزٌ وحـــجابي طلســـم من تراب قد تهيّا للفنـــــا
أنـــا عصفور وهـــذا قفصي كان سجني فأبيتُ السجنا
فاهدموا البيت فرضّوا قفصي وذروا الكـــل دفينا بيننـــا
وقميصي مزّقـــوه رمـــمـــاً وذروا الطلسم بعدي وثنا
فاخلعوا الأجساد عن أنفسكم تبصروا الحقّ عياناً بيّنـــا
مـــا أرى نفسي إلّا أنـــتـــمُ واعتقادي أنكم أنتـــم أنـــا
عُنصر الأنفس شيء واحد وكذا الأجسام جسم عمّنـــا

***

2 – للعز المقدسي

آ

أباحَتْ دمي إذ باح قلبي بحبّها وحلّ لها في حكمها ما استحلّت
أباحَتْ حمى لم يرعه الناس قبلها وحلّت تلاعاً لم تكن قبل حُلّت
و ما كنتُ ممّن يظهر السـرّ إنّما عروس هواها في ضميري تجلّت
فألقَـتْ على ســرّي أشعّة نورها فـــلاح لجـــلّاسي خفايـــا طويّتي
وشـــاهدتها فاستغرقتني حـــيـــرة فغابت بها عن كلّ كـــلّي وجملتي
وحلّـــت محـــلّ الكـــلّ منّي بكلها فإياي إيّـــاهـــا إذا مـــا تبـــدّت
ونمّتْ على سرّي فكانت هي التي عليهـــا بهـــا بين البـــريّة نَـــمَّتِ
إذا سَألت من أنت قلت أنـــا الذي بقائي إذا فـــنـــيت فيك هويّتي
أنا الحقّ في عشقي كما أن سيّدي هو الحـــقّ في حسن بغير معية
فإن كنتُ في سكري شطحتُ فإنّني حكمـــت بتمزيق الفؤاد المفتّت
ولا غروَ إن أصليت نار تحرّقـــي فنار الـــهوى للعاشقين أعدّتي
ومـــن عجب الذيـــن أحـــبّـــُهـــم وقد أعلقوا أيدي الهوى بأعنّـــة
سقوني وقالوا لا تُغنّ ولو سقـــوا جبال حُنين ما سقوني لغـــنَّت

***

ب

هيهاتَ مـــــا قتلـــوه كلّا ولا صـــلـــبـــوه
لكنهم حيـــن غابـــوا عن وجـــده شبّهـــوه
أحبابه حين غـــاروا عليه قـــد غيّبـــــوه
سقوه صرفاً وراموا كتمان مـــا أوعـــدوه
فمـــا أطـــاق ثبوتـــا لثقل مـــا حمّلـــــوه
فتـــاهَ سكـــراً ونادى أنا الذي أفـــــردوه
يا لائمي كيف أخفي وفي الحبّ ما أظهروه
أم كيف يكتـــم قلباً بالشوق قد مزّقـــوه

***

3 – لعلي الششتري

آ – (مستوحاة من قصيدة لابن عربي)

شهدت حقيقتي وعظيم شأني مقدسة عن إدراك العياني
فقال مترجما عنـــي لساني أنا القرآن والسبع المثاني
وروح الروح لا روح الأواني
أنا فـي مستوى عرشي قـديـم لِذِي أنّيّتي العـظـمى نـديـم
وفـي بلـوى محبّتكـم أهـيـم فـؤادي عنـد معلومي مقيـم
يناجيه وغَيْركم لساني
سترت حقيقتي عـن كـل فهـم بما أظهرت من وسم ورسـم
فإن تطلب ترى صفتي مع اسمي فلا تنظر بطرفك نحو جسمي
وَعَدِّ عن نعيم بالمغاني
وللطِّلْسْـمِ فـي العينَينْ كـسِّـرْ وحـقـقْ سرّ معنـائي وحـرّرْ
وللمسجـور مـن بحري فبحّـرْ وغصْ في بحر ذات الذات تبصرْ
عجايب ليس تبدو للعيان
فـإن شـاهدتني فـي كـل ذات باسمـآي عيانـا في صفاتـي
ستفهـم مـا خفي فـي الكاينات وأسـرار تـرآت مبـهـمـات
مستَّرةً بأرواح المعاني
فعند شهـودك الأسـرار منهـا فلا تك غائبا فـي الكون عنهـا
ووَحّـدْ واتّحـدْ كيمـا تكُنْهـا فمـن فهـم الإشارة فليصنْهـا
و إلا سوف يُقتل بالسنان
فمـن أوْرَى زناد الحـق رُدَّتْ حقيقتـه وعنـه البـاب سُـدّتْ
وكعبتـه بفـاس الشرع هُـدّتْ كحـلّاج المحـبّـة إذ تـبـدّتْ
له شمس الحقيقة بالتداني
فلـمـا إن دنـا منهـا تدلّـى وبالاسـم العظيم قـد تجلّـى
تـوحّد عنـد ذاك و مـا تولّى فقـال أنـا هو الحقّ الذي لا
يُغيّر ذاتَه مرُّ الزمان

***

ب – قصيدة في الإسناد

أرى طالباً منّا الزيادة لا الحُسْنى بفكر رمى سهماً فعدّا به عَدنا
فنحـن كدود القزّ يحصرنا الذي صُنعنا بدفع الحر سجناً لنا منّا
وتـيـمَّ أرباب الهرامس كلّهـم وحسبك من سقراط أسكنه الدنا
وجـرّد أمثـال العوالم كـلـهـا وأبدى لأفلاطون في المثل الحسنا
وهام أرسطو أو مشى من هيامه وبثّ الذي ألقى إليه وما ضنّـا
وكان لذي القرنَيْن عوناً على الذي تبدا به وهو الذي طلب العينـا
ويفحص عن أسباب ما قد سمعتم وبالبحث عَطّى عين إذ ردّه عينا
وذَّوق للحلاج طعـم اتـّـحاده فقال أنـا مـن لا يحيط بـه معْنى
فقيل له أرجع عن مقالك قـال لا شربت مُداماً كلّ من ذاقها غـنّـى
وانطـق للشبلي بالوحـدة التي أشار بها لمّا محا عنده الكـونـا
وأظهر منه الغافقي لما جنـى وكشط عن طواره الغيم والدجنـا
وبيّن أسرار العبودية التـي عن أعرابهم لم يرفع اللبس واللحنا
كشفنا غطاء من تداخل سرّها فأصبح ظهرا ما رأيتم له بطنـا
هدانا لدين الحقّ من قد تولهَتْ لـعـزته ألـبابـنـا وله هُدنا

فمن كان يبغي السير للجانب الذي تقــدّس يأتي الآن يأخذه عــنّــا

***

4 – يافي

سلامٌ على قومٍ شموس هدىً غدا بهم في الهوى سكر إلى حشرهم غدا
أدار عليهم كــأس راح محبّـــةٍ جمالٌ سقى الأحباب لــمــا لهم بــدا
به هام بعضٌ في الُرّءى وبعضهم به وله ظنّوا حــبــوبــاً فَــقُــيّــدا
وبعض من الأكوان بانَ وبعضهم به جــاوز الإسكارُ حدّاً فَــعَــرْبَــدَا
فسلّ عليه الشرع سيفاً حمى به حدوداً فرا الحلّاج مــاضٍ مــردَّدا
فمات شهيداً عندكم من محقق وكم عندكم يخرج عن القوم ملحدا
ولكن فتى بسطام موقى بحاله حمى عن عنايات عزيزاً ممجَّـــدا

***

5 – حريفش مكّي: قصة الحلاّج

الخمرُ دِنّي ودِن الخمر ريحانـــي ومجلس الذكر تسبيحي وعيدانـــي
ما يشرب الخمر إلّا من يكن بَطَلٌ ويطلق النوم لم تغمض له أجفاني
طلّقتُ نومي ولم اسلا حلاوتــه حتّى بقي جفن عيني ساهراً فاني
أنا الحسين أنا الحلّاج يا فقَــراء ذوبّتُ سندانَهم من عظم برهــاني
أنا الذي شاع ذكري بالملا الأعلى حلجتُ قطني بتقــواي وإيمــاني
الباز الأشهبْ أتى نحوي صافحني والأولياء أتت مــن أرض جيلان
شربت من خمرة عن بكرة مُزِجَت شِبه العروس انجلت في وسط بستان
ابن الرفاعي رقا وقتاً بها وعلا وابن أدهم سيّبْ مُلكــه الفــانـــي
افتوا علّي وقالوا قد طغى و بغى حاشا من البغي لكن صرتُ ربّانـــي
طلّع المؤذّنْ يودّنْ قلت ما حكيتْ انّي سمعت لديك العرش بــآذاني
من خاض بحر الهوى من غير معرفة يبلعه الحوتُ يبقى يــونس الثانـــي
من خاض بحر الهوى يُخْرِجُ جواهرها ألا ينادي عليه يا بطّــال كسلاني
من باع دُرّاً إلى الفحام ضَــيَّــعْهُ الدر ينباعُ بالقسطاس يا أخواني
لا تَخْدَعَنَّ قليل الأصــل تظّــلمه وأغلــظْ عليــه طوعــاً بإذعــان
أنّ الحديدَ تــذيب النــار قــوّتــه و لو سكبتَ عليه البحــر ما لان
يا طالب النصرَ من أعداك مُتْ كَمداً كطالب الشُهْــدَ من أنياب ثعبان
يا قــارئ العلم بيــن الجاهلين خَطــأ كواقد الشمع في قاعات عميان
يا واضع السرّ مع مــن ليس يكتمــه كواضع الريح في أكمام عريان
من باح بالسرّ كــان القتــل شيمته بين الرجال ويُضحى اليوم خجلان
شدّوا وثــاقي وقــالوا اقتلونّ لــــه حلّاج حلّاج أنت في البلدْ زانــي
واللهِ واللهِ والــرحــمن خــالقنــا لولا يقولوا دعــا الحلاج بهتــان
أصيح فيهم كما صاح الفَتَى البَــدَوي وأهدم بغداد ما خلا لــهــا اركــان
لكن سمعــت رجــال الله قــائــلــهْ فمُتْ شهيداً كما ماتْ ابــن عفــان
والخضــر واقــفْ قبالي لا يكلّمــني والأربعين يقولــوا هكــذا كــانــي
حتّى أتى القطب والأقطاب تــتبعه ثلاث مائةٌ وهــم يتلــون قــرآنــي

أنا مكتَّفْ وسيف الشــرع يلفحْنـــي سبعين مرّةْ بـــأذن الله مـــا ذانـــي
صرختُ بالسيف قال السيف ألفْ نعمْ لبّيك لبّيك يا حـــلاجُ يـــا دانـــي
و هـــذه قصّة الحلّاج قـــد فـــرِغَـــتْ هـــم أحرقـــوه وكـــانوا الكل عميانِ
بعـــد الصلاة علـــى المختار سيّدِنـــا خير البريّةْ بُعثْ مـــن نسْـــل عدنانِ
والمسلمين عليهـــم دائمـــاً ابَـــــداً منّي سلامٌ فـــهمْ أهلي و جيرانـــي